الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

دار الريان للتراث




الجواب الكافي
لمن سأل عن الدواء الشافي



الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

(٦٩١ — ٧٥١)

حققه

محب الدين الخطيب

(١٣٠٣ — ١٣٨٩)

المكتبة السلفية

طبع فى دارنا السلفية

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤ من الهجرة
الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧ من الهجرة
الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠ من الهجرة
الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٧ من الهجرة

الطبعة الرابعة

(طبعة جديدة مشروعة)

عنيت بطبعه
دار المطبعة السلفية
٢١ شارع الفتح بالروضة ـــ القاهرة ، تليفون ٨٤٠٣٦٤

مقدمة الناشر

إن الإمام شمس الدين أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه وعن آله الصالحين ، قد أتحف المكتبة الإسلامية بوابل من التراث الإسلامى الذى لا ينضب معينه ، ومازال المسلمون يتلقون دروسه القيمة سلفاً عن خلف إلى يوم الساعة .

ولد ابن قيم الجوزية سنة إحدى وتسعين وستمائة ، ولازم الشيخ تقى الدين بن تيمية وأخذ عنه وتفنن فى كافة علوم الإسلام . وكان عارفاً فى علم التفسير لا يجارى فيه ، ويعلم الحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يُلحق فى ذلك ، وبعلم الفقه والأصول العربية ، وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام والتصوف .

أخذ عنه العلوم خلق كثير فى حياة شيخه إلى أن مات ، وانتفعوا به . وهذه المؤلفات القيمة التى قام بتأليفها هى :

١ ــ تهذيب سنن أبى داود .
٢ ــ سفر الهجرتين وباب السعادتين .
٣ ــ مدارج السالكين بين منازل ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهو شرح منازل السائرين لشيخ الإسلام الأنصارى .
٤ ــ عقد محكم الأحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح إلى رب السماء .
٥ ــ شرح أسماء الكتاب العزيز .
٦ ــ زاد المسافر إلى منازل السعداء فى هدى خاتم الأنبياء .
٧ ــ زاد المعاد فى هدى خير العباد .
٨ ــ حلى الأفهام فى ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام .
٩ ــ بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل .
١٠ ــ نقد المنقول ، والمحك المخير بين المردود والمقبول .
١١ ــ بدائع الفوائد .
١٢ ــ الشافية الكافية فى الانتصار للفرقة الناجية ــ وهى القصيدة النونية فى السُّنة .
١٣ ــ الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة .
١٤ ــ حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح .
١٥ ــ نزهة المشتاقين وروضة المحبين .
١٦ ــ الكافى لمن سائل عن الدواء الشافى .

١٧ ـــ تحفة الودود فى أحكام فى المولود .
١٨ ـــ مفتاح دار السعادة .
١٩ ـــ اجتماع الجيُوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية .
٢٠ ـــ رفع اليدين فى الصلاة .
٢١ ـــ نكاح المحرم . ٢٢ ـــ تفضيل مكة على المدينة .
٢٣ ـــ فضل العلم . ٢٤ ـــ عدة الصابرين .
٢٥ ـــ الكبائر . ٢٦ ـــ حكم تارك الصلاة .
٢٧ ـــ نور المؤمن وحياته . ٢٨ ـــ حكم إغمام هلال رمضان .
٢٩ ـــ التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير .
٣٠ ـــ بطلان الكيميا من أربعين وجهاً .
٣١ ـــ الفرق بين الخلة والمحبة ، ومناظرة الخليل لقومه .
٣٢ ـــ الكلم الطيب والعمل الصالح .
٣٣ ـــ الفتح القدسى . ٣٤ ـــ التحفة المكية .
٣٥ ـــ أمثال القرآن . ٣٦ ـــ شرح الأسماء الحسنى .
٣٧ ـــ أيمان القرآن . ٣٨ ـــ المسائل الطرابلسية .
٣٩ ـــ الصراط المستقيم فى أحكام أهل الجحيم .
٤٠ ـــ أعلام الموقعين عن رب العالمين .

ولقد شهد العلماء له بالعلم والورع . قال عنه ابن حجر : « كان جرئ الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف » .

قال القاضى برهان الدين الزُّرعى :

ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه ، ودرس بالصدرية ، وأَمَّ الجوزية وكتب بخطه ما لا يحصى تصانيف كثيرة جدًّا فى مختلف العلوم .

إن كتاب الجواب الكافى مصنَّف من مجموعة المصنفات التى تبلغ الأربعين . إن الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى دليل لكل محتار ، وشفاء لكل سقيم ، وبلسم لمن عاش فى اضطراب نفسى ، نفع الله به . وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه والله المستعان .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

سئل الشيخ الإمام العالم العلّامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمّد ابن الشيخ الصالح أبي بكر ، عرف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه :

ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، رضى الله عنهم أجمعين ، فى رجل ابتلى ببلية ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ؟ وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما يزداد إلا توقداً وشدة ، فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ فرحم الله من أعان مبتلى . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى .

فأجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتى المسلمين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر أيّوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى :

الحمد لله ، أما بعد : فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أَنزلَ الله داءً إلَّا أَنْزَلَ الله لَهُ شِفَاءً » .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فإذا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاء بَرِأَ بِإِذْنِ الله » .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِل دَاءً إلَّا أَنْزَلَ لهُ شِفَاء ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهلَهُ

مَنْ جهِلَهُ » . وفى لفظ « إنَّ الله لَمْ يَضَع دَاء إلَّا وَضع لَهُ شِفَاء ، أَوْ دوَاء ، إلَّا دَاءً وَاحِدًا . قَالُوا : يَا رَسُولَ الله مَا هُوَ ؟ قال : الهرَم » . قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وهذا يعم أدواء القلب والرّوح والبدن وأدويتها ، وقد جعل النَّبيّ صلى الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء .

فروى أبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله قال : « خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حجر ، فشجه فى رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلمّا قدمنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أُخبر بذلك . فقال : قتَلُوهُ ، قَتَلَهُم الله ! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا ؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤالُ ، إِنَّمَا كَانَ يكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّم ويَعصر - أو يعصب - عَلَىٰ جرحه خِرْقَة ، ثُمَّ يَمْسَحُ عَلَيْهَا ، وَيَغْسِل سَائِر جَسَدِه » فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال .

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُه ؟ أَأَعْجَمِى وَعَرَبِى ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِن القُرْآن مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَة لِلْمُؤْمِنِين ﴾ [الإسراء : ٨٢] . و « من » هنا لبيان الجنس لا للتبعيض ، فإن القرآن كله شفاء ، كما قال فى الآية المتقدمة ، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والرّيب ، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع فى إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبي سعيد قال : « انطلق نفر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها ، حتّى نزلوا على حي من أحياء العرب

فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم فلُدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شىء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء . فهل عند أحد منكم من شىء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إنى لأرقى ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لى جُعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفُل عليه ويقرأ : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فكأنما نَشَط من عِقال ، فانطلق يمشى ، وما به قَلَبة [١] فأوفوهم جُعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقتسموا . فقال الذى رقى : لا نفعل حتى نأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ذلك فقال : وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال : قد أصبتم ، اقتسموا واضربوا لى معكم سهمًا . فقد أثّر (هذا) الدواء فى هذا الداء وأزاله ، حتى كأنه لم يكن . وهو أسهل دواء وأيسره ، ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا فى الشفاء . ومكثت بمكة مدة يعترينى أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواء فكنت أعالج نفسى بالفاتحة ، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا ، فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألمًا ، فكان كثير منهم يبرأ سريعًا .

ولكن ههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها ، هى فى نفسها نافعة شافية . ولكن تستدعى قبول المحل ، وقوة همة الفاعل ، وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المنفعل ، أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية ، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة

---

(١) فى النهاية : قلبة — بحركات — أى علة .

لذلك الدواء ، وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره ، فإن الطّبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول . فكذلك القلب إذا أخذ الرّقى والتعاويذ بقبول تام ، وكان للراقى نفس فعالة وهمة مؤثرة فى إزالة الداء .

وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف أثره عنه ، إما لضعفه فى نفسه — بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان — وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا ، وإما لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ، ورَيْن الذنوب على القلوب ، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها . كما فى مستدرك الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » .

واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ ، فهذا دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها ، كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّهَا النَّاس ، إنَّ الله طَيِّبٌ : لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا وَإنَّ الله أَمَرَ المؤمِنِين بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِين فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الرّسل كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكم ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعثَ أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومَطعمه حرام ، ومَشربه حرام ، وملبسه حرام وغُذِّى بالحرام ، فأنّى يستجاب لذلك ؟ » وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد فى كتاب الزهد لأبيه « أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا

مخرجًا ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون إلىّ أكفًا قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد غضبي عليكم ؟ ولن تزدادوا منى إلَّا بُعدًا » . وقال أبو ذر : يكفى من الدعاء مع البر ما يكفى الطعام من الملح .

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم فى صحيحه من حديث على بن أبي طالب رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِمَادُ الدِّينِ ، وَنُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » .

وله مع البلاء ثلاث مقامات :

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثانى : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُغْنِى حذرٌ مِنْ قَدَر . وَالدُّعَاء يَنْفَع مِمَّا نَزَل وَمِمَّا لَمْ يَنْزِل ، وَإِنَّ البَلَاء لينزل فيلقاه الدعاء فيَعْتَلِجان إلى يَوْم القِيَامَة » .

وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « الدُّعَاءُ يَنْفَع مِمَّا نَزَل وَمِمَّا لَمْ يَنْزِل ، فَعَلَيْكُم عِبَادَ الله بِالدُّعَاءِ » .

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لَا يَرُدُّ القَدَرُ إلَّا الدُّعَاء ، ولَا يَزِيد فِى العُمْرِ إلَّا البِرُّ ، وَإِنَّ الرَّجُل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه » .

فصل

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح فى الدعاء .

وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهِ يَغضب عَلَيْهِ » .

وفى صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لَا تَعْجَزُوا [1] فِى الدُّعَاءِ ، فإِنَّهُ لَا يهلك مَعَ الدُّعَاءِ أَحدٌ » .

وذكر الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّين فِى الدُّعَاءِ » .

وفى كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال : قال مُورّق : « ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجلا فى البحر على خشبة ، فهو يدعو : يا رب . . يا رب ، لعل الله عز وجل أن ينجيه » .

فصل

ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد ، ويستبطئ الإجابة ، فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا ، فجعل يتعاهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُستَجَابُ لأَحَدِكم مَا لَمْ يعجل ، يقول : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِى » .

وفى صحيح مسلم عنه : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول قد دعوت وقد دعوت ، فلم أرَ يستجاب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » .

---

(١) المراد لا تفتروا ولا تضعفوا فى الدعاء ، ولا تهونوا من شأن الدعاء فتظنوا عدم فائدته ، بل ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وأنتم موقنون بالإجابة .

وفى مسند أحمد من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قالوا : يارسول الله ، كيف يستعجل ؟ قال يقول : قد دعوت ربى فلم يستجب لى » .

فصل

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة – وهو : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر – وصادف خشوعًا فى القلب ، وانكسارًا بين يدى الرب ، وذلا له وتضرعًا ورقة ، واستقبل الداعى القبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله ، وبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قدم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله ، وألح عليه فى المسألة ، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدى دعائه صدقة ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا . ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

فمنها ما فى السنن و (فى) صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : « اللّهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إلٰه إلّا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . فقال : لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب » . وفى لفظ : « لقد سألت الله باسمه الأعظم » .

وفى السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك : « أنه كان

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجل يصلى ، ثم دعا فقال : اللّهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : لقد دَعَا الله باسمه العظيم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

وأخرج الحديثين الإمام أحمد فى مسنده .

وفى جامع الترمذى ، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿ وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] . وفاتحة آل عمران﴿ الٓمٓ . الله لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ ﴾ . قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَلِظُّوا بياذا الجلالِ والإِكْرَامِ » يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها .

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : « أن النَّبِىَّ صَلَّى الله عليهِ وسلم كانَ إذا أهمه الأمر رفعَ رأسه إلى السّماء ، وإذا اجتهد فى الدعاء قال : يَا حَىُّ يَا قيُّوم »

وفيه أيضًا من حديث أنس بن مالك ، قال : « كانَ النبىُّ صلَّى الله عليهِ وسلم إذا حزبه أمر قال : يَا حى يا قيوم . برحمتك أستغيث » .

وفى صحيح الحاكم من حديث أبى أمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، وطه » . قال القاسم : فالتمستُها فإذا هى آية ﴿ الحَىّ القَيُّوم ﴾

وفى جامع الترمذى وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبىُّ صلى الله عليه وسلم قال : « دَعْوة ذِى النُّون ، إذ دَعا وهُو فى بطن الحُوت» ﴿ أَنْ

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] أنه لم يدْعُ بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » . قال الترمذى : حديث صحيح .

وفى مستدرك الحاكم أيضًا من حديث سعد عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرِّج الله عنه ؟ دُعَاءَ ذِى النُّون » .

وفى صحيحه أيضًا عنه أنه سمعَ النبى صلى الله عليهِ وسلم وهو يقول : « هَلْ أدلُّكم على اسم الله الأعظم ؟ دُعاء يونس . قال رجل : يا رسول الله ، هل كانت ليُونس خاصة ؟ فقال : أَلَا تسمع قوله تعالى ﴿ فاسْتَجَبْنَا لهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى المُؤْمِنِين ﴾ [الأنبياء : ٨٨] فأيما مسلم دَعا بها فى مرضهِ أربعين مرّة فمات فى مرضه ذلك أُعطى أجر شهيد ، وإن برئَ برئَ مغفورًا له » .

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : « لَا إِلَهَ إِلَّا الله العظيم الحليم ، لَا إِلٰه إلا رب العرش العظيم ، لَا إِلٰه إِلَّا الله رب السّموات السّبع ورب الأَرض ورب العرش الكريم » .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « عَلَّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل كرب أن أقول : لَا إِلٰه إِلَّا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » .

وفى مسنده أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ ، فقال : اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ ابن عَبْدِكَ ابن أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِى بِيَدِك ، مَاض فِىَّ حكمُك ، عَدْلٌ فِىَّ قَضاؤك ، أَسْأَلك اللَّهُمَّ بكلِّ اسمٍ هُوَ لكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِن خَلْقِكَ

أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ : أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُور صَدْرِى ، وَجَلَاءَ حُزْنِى ، وَذَهَابَ هَمِّى ، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عز وجل همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحًا ، فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ قال : بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » .

وقال ابن مسعود : « ما كُرِب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح » .

وذكر ابن أبي الدنيا فى كتاب المجابين وفى الدعاء عن الحسن قال : « كان رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به فى الآفاق ، وكان ناسكًا ورعًا ، فخرج مرّة فلقيه لص مقنع فى السلاح . فقال له : ضع ما معك ، فإنى قاتلك . قال : ما تريد من دمى[1] ؟ شأنك بالمال . قال : أما المال فلى ، ولست أُريد إلا دمك . أما إذا أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات . قال صل ما بدا لك . فتوضأ ثمّ صلى أربع ركعات . فكان من دعائه فى آخر سجوده أن قال : يا ودود يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالًا لما تريد ، أسألك بعزك الذى لا يرام ، وبملكك الذى لا يضام ، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك : أن تكفينى شر هذا اللص : يامغيث أغثنى ، يا مغيث أغثنى . ثلاث مرات . فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله . ثم أقبل إليه فقال : قم . فقال : من أنت بأبى أنت وأمى ؟ فقد أغاثنى الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوتَ بدعائك الأول فسمعتُ لأبواب السماء قعقعة . ثمّ دعوتَ بدعائك الثانى فسمعتُ لأهل السماء ضجة . ثمّ دعوتَ بدعائك الثالث فقيل لى : دعاء مكروب . فسألت الله أن يولينى قتله . قال

(١) فى الأصل « ما تريد لى دمى » ولعل الصواب ما أثبتناه .

الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب .

فصل

وكثيرًا ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا لحسنته ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته ، فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجردًا عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغى استعماله على الوجه الذى ينبغى ، فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف فى حصول المطلوب كان غالطًا . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس .

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر . فيظن الجاهل أن السر للقبر ، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله .

فصل

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه ، لا بحده فقط . فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به ، والساعد ساعد قوى ، والمانع مفقود — حصلت به النكاية فى العدو . ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير ، فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح ، أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة ، لم يحصل الأثر(١) .

(١) فى نسخة « لم يحصل التأثير » .

فصل

وههنا سؤال مشهور ، وهو : أن المدعوّ به إن كان قُدِّر لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع ، وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله .

فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء . وقالت : لا فائدة فيه . وهؤلاء – مع فرط جهلهم وضلالهم – متناقضون ، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب ، فيقال لأحدهم : إن كان الشبع والرى قد قدرا لك فلابد من وقوعهما ، أكلت أو لم تأكل . وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل . وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه ، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ . وإن لم يقدر ذلك لم يكن ، فلا حاجة إلى التزوج والتسرى . وهلمّ جرًّا . فهل يقول هذا عاقل أو آدمى ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته . فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

وتكايس[١] بعضهم وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعى من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما ، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمارة على قضاء الحاجة ، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت . وهذا كما إذا رأيت غيما أسود باردًا فى

(١) تكايس : ادعى الكيس وتكلفه . وهو الحزم والفطانة

زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر . قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصى مع العقاب ، هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب ، لا أنها أسباب له . وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل . ليس شيء من ذلك سببًا ألبتّه ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادى ، لا التأثير السببى وخالفوا بذلك الحس والعقل ، والشرع والفطرة ، وسائر طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء .

والصواب : أن ههنا قسما ثالثًا ، غير ما ذكره السائل . وهو أن هذا المقدور قُدر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء . فلم يقدر مجردًا عن سببه ، ولكن قدر سببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه . وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال . وهذا القسم هو الحق . وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له .

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال : لا فائدة فى الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال . وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ فى حصول المطلوب .

ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأفقههم فى دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يستنصر به على عدوه . وكان أعظم جنديه . وكان يقول لأصحابه « لستم تنصرون بكثرة ، وإنما تنصرون من السماء » . وكان يقول

« إنى لا أحمل هَمَّ الإجابة معه . ولكن هم الدعاء . فإذا أُلهمتم فإن الدعاء الإجابة معه » . وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفيك ما عودتنى الطلبا

فمن أُلهم الدعاء فقد أُريد به الإجابة ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وفى سنن ابن ماجة من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ » وهذا يدل على أن رضاءه فى سؤاله وطاعته . وإذا رضى الرّب تبارك وتعالى فكل خير فى رضاه ، كما أن كل بلاء ومصيبة فى غضبه .

وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب الزهد أثرًا « أَنَا اللهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، إذا رَضِيتُ بَارَكْتُ ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِى مُنْتَهَى . وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ ، وَلَعْنَتِى تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الوَلَدِ » .

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأُمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأَسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأَسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى خلقه .

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وحصول الشرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه على الأَعمال ، ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع ، فتارة يرتب الحكم الخبرى الكونى والأَمر الشرعى على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا عتوا عَمَّا نُهُوا عنهُ قُلْنَا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين ﴾ [الأعراف : ١٦٦] وقوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنَا مِنْهُم ﴾ [الزخرف : ٥٥] . وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جزاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة : ٣٨] . وقوله : ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ ، وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ، وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، والخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ ، والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالحَافِظِينَ فُرُوجهم وَالحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب ٣٥] . وهذا كثير جدًّا ، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى : ﴿ إِنْ تتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لكُم فُرْقانًا وَيُكَفِّرْ عنْكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغْفِرْ لكُم ﴾ [الأنفال : ٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُم فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] ونظائره . وتارة يأتى بلام التعليل كقوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب ﴾ [صٓ : ٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وتارة يأتى بأداة « كى » التى للتعليل ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْلَا يَكُون دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء منْكُم ﴾ [الحشر : ٧] . وتارة يأتى بباء السببية كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم ﴾ [آل عمران : ١٨٢] . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ [المائدة : ١٠٥] . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُم تكْسِبُون ﴾ . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ [آل عمران : ١١٣] . وتارة يأتى بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا ، كقوله تعالى : ﴿ فرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ ترْضَوْنَ مِنَ الشُّهداءِ أَن تَضِلَّ[1] إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّر إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . وكقوله تعالى : ﴿ أَنْ

---

(١) تضل : أى تخطئ لعدم ضبطها وقله عنايتها ، لأن الشهادة ليست من شأنها

تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِين ﴾ [الأعراف : ١٢٧] . وقوله : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلنا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] أى كراهة أن تقولوا ، وتارة يأتى بفاء السببية ، كقوله تعالى : ﴿ فكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاها ﴾ [الشمس : ١٤ ، ١٥] . وقوله : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة : ١٠] . وقوله : ﴿ فكَذَّبُوهُمَا فكَانُوا مِنَ المُهْلَكِين ﴾ [المؤمنون : ٤٨] ونظائره . وتارة يأتى بأداة « لما » الدالة على الجزاء كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا منهم ﴾ [الزخرف : ٥٥] . ونظائره . وتارة يأتى بإن وما عملت فيه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . وقوله فى ضد هؤلاء : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِين ﴾ [الأنبياء : ٧٧] . وتارة يأتى بأداة « لولا » الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِين لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْم يُبْعَثُون ﴾ [الصَّافَّات : ١٤٣ ، ١٤٤] . وتارة يأتى « بلو » الدالة على الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُم فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لكانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [النساء : ٦٦] .

وبالجملة . فالقرآن من أوله إلى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب . بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

ومن تفقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلا منه ، وعجزًا وتفريطًا وإضاعة ، فيكون توكله عجزًا ، وعجزه توكلا . بل الفقيه كل الفقيه الذى يرد القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر ، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك ، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القدر . والخلق كلهم ساعون

فى دفع هذا القدر بالقدر ، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهذا وزان القدر المخوف فى الدنيا ، وما يضاده سواء ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضًا ، ولا يبطل بعضها بعضا ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حق رعايتها ، والله المستعان .

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه :

أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ، وتكون له بصيرة فى ذلك بما يشاهده فى العالم ، وما جربه فى نفسه وغيره ، وما سمعه فى أخبار الأمم قديمًا وحديثًا .

ومن أنفع ما فى ذلك تدبر القرآن ، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه . وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة . ثمّ السنة ، فإنها شقيقة القرآن ، وهى الوحى الثانى . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما . وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما ، حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا . وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله فى أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به ، وعلمت من آياته فى الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر .

فصل

الأمر الثانى : أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب . وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له فى دنياه وآخرته ولابد ، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويف

بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة ، وبفعل المندوبات تارة ، وبالعلم تارة ، وبالاحتجاج بالقدر تارة ، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة ، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى .

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال (أستغفر الله) زال الذنب ، وراح هذا بهذا . وقال لى رجل من المنتسبين إلى الفقه : أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة ، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال فى يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر » . وقال لى آخر من أهل مكة : نحن أحدنا إذا فعل ما فعل[1] اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا وقد محى عنه ذلك . وقال لى آخر : قد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أذهب عبد ذنبًا فقال : أىّ ربِّ أصبتُ ذنبًا فاغفر لى ، فغفر له ، ثمّ مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبًا آخر ، فقال : أى رب ، أصبت ذنباً فاغفر لى ، فقال الله عز وجل : علم عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به . قد غفرت لعبدى ، فليصنع ما شاء » . قال : وأنا لا أشك أن لى ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به . وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء ، واتكل عليها ، وتعلق بكلتا يديه ، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء . وللجهال من هذا الضرب من الناس فى هذا الباب غرائب وعجائب . كقول بعضهم :

وكثّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر : التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله .

وقول الآخر : ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار

---

(١) وهكذا . وربما كان أصل العبارة « نحن إذا فعل أحدنا »

وقال محمد بن حزم : رأيت بعض هؤلاء يقول فى دعائه : اللّهم إنى أعوذ بك من العصمة .

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر ، وأن العبد لا فعل له البتَّة ولا اختيار ، وإنما هو مجبور على فعل المعاصى .

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء ، وأن الإيمان هو مجرد التصديق ، والأعمال ليست من الإيمان ، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل .

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين ، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم ، والاستشفاع بهم ، والتوسل إلى الله بهم ، وسؤاله بحقهم عليه ، وحرمتهم عنده .

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه . وأن لهم عند الله مكانًا وصلاحًا ، فلا يَدَعوه أن يخلِّصوه ، كما يشاهد فى حضرة الملوك ، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم ، وإذا وقع أحد منهم فى أمر مُفْظِع خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته .

ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غنى عن عذابه ، وعذابه لا يزيد فى ملكه شيئًا . ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا . فيقول : أنا مضطر إلى رحمته ؛ وهو أغنى الأغنياء ، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًا إلى شربة ماء عند من فى داره شط يجرى لما منعه منها ، فالله أكرم وأوسع ، والمغفرة لا تنقصه شيئًا ، والعقوبة لا تزيد فى ملكه شيئًا .

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة ، فاتكلوا كاتكال بعضهم على قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى : ٥] . وهو لا يرضى أن يكون فى النار . وهذا من أقبح الجهل ، وأبين الكذب عليه ، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل ، والله تعالى يرضيه تعذيب الظَّلمة

والفسقة والخونة والمصرِّين على الكبائر ، فحاشا برسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزُّمر : ٩٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل ، فإن الشرك داخل فى هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها . ولا خلاف أن هذه الآية فى حق التائبين ، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أى ذنب كان . ولو كانت الآية فى حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها . وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة . وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه ، فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق ، فعلم أنه أراد التائبين . وفى سورة النساء خصص وقيد فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] . فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك ، وأخبر أنه يغفر ما دونه ، ولو كان هذا فى حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره . وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦] . فيقول : كرمه ، وقد يقول بعضهم : إنه لقن المغتر حجته ، وهذا جهل قبيح ، وإنما غره به الغرور ، وهو الشيطان ، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه وأتى سبحانه بلفظ « الكريم » وهو السيد العظيم المطاع الذى لا ينبغى الاغترار به ولا إهمال حقه ، فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه ، واغتر بمن لا ينبغى الاغترار به . وكاغترار بعضهم بقوله تعالى فى النار : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل : ١٥ ، ١٦] وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤] . ولم يدر هذا المغتر أن قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل : ١٤] هى نار مخصوصة من جملة دركات جهنم ، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها ، بل قال ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها ، فإن الصلى أخص من الدخول ، ونفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم .

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضمونًا له أن يُجنَّبها .

وأما قوله تعالى فى النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين ﴾ فقد قال فى الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . ولا ينافى إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة . ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيرًا قط .

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم عاشوراء ، أو يوم عرفة ، حتى يقول بعضهم : صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ، ويبقى صوم عرفة زيادة فى الأجر . ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء ، وهى إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر ، فرمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها ، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر . فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها ، غير تائب منها؟ هذا محال . على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام على عمومه ، وتكون من نصوص الوعد التى لها شروط وموانع ، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير ، فإذا لم يُصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار ، وتعاونهما على عموم التكفير . كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهون عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] فعلم أن جعل الشىء سببًا للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما . وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل .

وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : « أنا عند حسن ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء » يعنى ما كان فى ظنه فإنى فاعله به ، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان ، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ، ويقبل توبته ، وأما المسىء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصى والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه ، وهذا موجود فى الشاهد ، فإن العبد الآبق المسىء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به ، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا ، فإن المسىء مستوحش بقدر إساءته ، وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له ، كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل .

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه ، حال مرتحل فى مساخطه وما يغضبه ، متعرض للعنته ، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه ، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه ؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة ، وعادى أولياءه ، ووالى أعداءه ، وجحد صفات له ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر ؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب ، وقد قال الله تعالى فى حق من شك فى تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فُصِّلت : ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم ، فأرداهم ذلك الظن ، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ، ووصفه بما لا يليق به ، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان غرورًا وخداعًا من نفسه وتسويلا من الشيطان ، لا إحسان ظن بربه .

فتأمل هذا الموضع ، وتأمل شدة الحاجة إليه ، وكيف يجتمع فى قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله ، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ، ويعلم سره وعلانيته ، ولا يخفى عليه خافية من أمره ، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل ، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره ، معطل لحقوقه ، وهو مع هذا يحسن الظن به ، وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأمانى ؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف : « دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضى الله عنها فقالت : لو رأيتما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض له ، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير ، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها ، فشغلنى وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عافاه الله ، ثمّ سألنى عنها فقال : ما فعلتِ ؟ أكنت فرّقت الستة الدنانير ؟ فقلت : لا والله ، لقد كان شغلنى وجعك ، فدعا بها فوضعها فى كفه ، فقال : « ما ظن نبى الله لو لقى الله وهذه عنده ؟ » . وفى لفظ « ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده » .

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم . فإن كان ينفعهم قولهم : حسّنا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالما ولا فاسقا ، فليصنع العبد ما شاء ، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه ، وليحسن ظنه بالله ، فإن النار لا تمسه ، فسبحان الله ؟ ! ما يبلغ الغرور بالعبد ، وقد قال إبراهيم لقومه : ﴿ أَإِفكا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُون ؟ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِين ؟ ﴾ [الصافات : ٨٦] أى ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره .

و ن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه ، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه ، فالذى حمله على حسن العمل حسن الظن ، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله ، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز ،

كما فى الترمذى والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الكَيِّسُ مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » .

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة ، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن .

فإن قيل : بل يتأتى ذلك ، ويكون مستَنَد حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأنه لا تنفعه العقوبة ، ولا يضره العفو .

قيل : الأمر هكذا ، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ، ولكن إنما يضع ذلك فى محله اللائق به ، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام ، وشدة البطش ، وعقوبة من يستحق العقوبة ، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك فى ذلك البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ووليه وعدوه ، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه ، وتعرض للعنته ، ووقع فى محارمه ، وانتهك حرماته ، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع ، وبدل السيئة بالحسنة . واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة . ثم أحسن الظن بعدها فهذا حسن الظن . والأول غرور ، والله المستعان .

ولا تستطل هذا الفصل ، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين والفاسقين ، وقال تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : ١١٩] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها ، فالعالم يضع الرجاء مواضعه . والجاهل المغتر يضعه فى غير مواضعه .

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه ، فضيعوا أمره ونهيه ، ونسوا أنه شديد العقاب ، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين . ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند .

قال معروف : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق .

وقال بعض العلماء : من قطع عضواً منك فى الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته فى الآخرة على نحو هذا .

وقيل للحسن[1] : أراك طويل البكاء . فقال : أخاف أن يطرحنى ولا يبالى .

وكان يقول : إن قوماً ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة ، يقول أحدهم : لأنى أحسن الظن بربى ، وكذب ، لو أحسن الظن لأحسن العمل .

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير من أن تصحب أقواماً يؤمّنونك حتى تلحقك المخاوف .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه[2] فيدور فى النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطوف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، ما أصابك ! ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ! فيقول : آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وذكر الإمام أحمد من حديث أبى رافع قال : « مر رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى نسخة : « وقال رجل للحسن » .

(٢) الأقتاب : الأمعاء ، واحدها قتب بكسر القاف وسكون التاء المثناة — والاندلاق : خروج الماء ونحوه دفعة واحدة

وسلم بالبقيع ، فقال : أُف لك ، فظننت أنه يريدنى ، فقال : لا ، ولكن هذا قبر فلان ، بعثته ساعيًا إلى آل فلان ، فغلَّ نَمِرة فدُرِّع الآن مثلها من نار » .

وفى مسنده أيضًا من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أُسرى بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ! قالوا : خطباء من أُمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأْمرون الناسَ بالبر وينسَوْنَ أنفسهم » .

وفيه أيضًا من حديثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عُرِّج بى ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاءِ يا جبريل ؟ ! فقال : هؤلاء الذين كانوا يأْكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم » .

وفيه أيضًا عنه ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول . يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبِّت قلبى على دينك . فقلنا يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء .

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟ ! قال : ما ضحك منذ خلقت النار » .

وفى صحيح مسلم عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثمّ يقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت خيرًا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب ، ما مر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

وفى المسند من حديث البراء بن عازب ، قال : « خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثا - ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ببعض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان أهل الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر . ثمّ يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : اخرجى أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج ، تسيل كما تسيل القطرة من فىّ السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيِّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى علّيين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه إلى الأرض فيأتيه ملكان ، فيُجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله عز وجل ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو (محمد) رسول الله فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره

مد بصره . قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول : من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة . . رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال : وإن العبد الكافر ، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : اخرجى إلى سخط من الله وغضب . قال : فتغرق فى جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبتل ، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفة عين ، حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التى يسمى بها فى الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له . ثمّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يلج الجمل فِى سَمِّ الخياط ﴾ [الاعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سِجِّين ، وفى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحًا ثمّ قرأ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه . . هاه ، لا أدرى فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه . هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى ، فافرشوا له من النار وافتحوا له بابًا إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح . فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى

كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة » .

وفى لفظ لأحمد أيضًا « ثم يقيّض له أعمى أصم أبكم ، فى يده مِرزبّة ، لو ضرب بها جبلا كان ترابا ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين » . قال البراء « ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمهد له من فراش النار » .

وفى المسند أيضًا عنه قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بصر بجماعة فقال : علام اجتمع هؤلاء ؟ قيل : على قبر يحفرونه ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبدر بين يدى أصحابه مسرعًا ، حتى انتهى إلى القبر ، فجثا على ركبتيه ، فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه ، ثم أقبل علينا فقال : أى إخوانى ، لمثل هذا اليوم فأعدوا » .

وفى المسند من حديث بريدة قال : « خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا ، فنادى ثلاث مرات : يا أيها الناس ، أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًا يأتيهم ، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فأبصر العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتم ، أيها الناس أتيتم — ثلاث مرات » .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام ، وإن على الله عز وجل عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار » .

وفى المسند أيضًا من حديث أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت السماء ، وحق لها أن تئط ،

ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » . قال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تعضد .

وفى المسند أيضًا من حديث حذيفة قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه ، فجعل يردد بصره فيه ، ثم قال : يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ، ويملأ على الكافر نارًا » . والحمائل : عروق الأنثيين .

وفى المسند أيضا من حديث جابر قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ حين توفى ، فلما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع فى قبره وسوى عليه ، سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسبحنا طويلا، ثم كبّر فكبّرنا ، فقيل : يا رسول الله ، لِمَ سبحت ؟ ثم كبّرت فقال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه » .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا وضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدمونى . . قدمونى ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها ، أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق » .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد فى حرها كذا وكذا ، تغلى منها الرؤوس كما تغلى القدور ، يغرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » .

وفيه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وصاحب

القرن قد التقم القرن ! وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ . فقال أصحابه : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وفى المسند أيضًا عن ابن عمر يرفعه « من تعظم فى نفسه ، أو اختال فى مشيته ، لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » .

وفى الصحيحين عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

وفيهما (أيضًا) عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى . إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة » .

وفيهما أيضًا عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا صار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار جىء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح . ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة خلود فلا موت . ويا أهل النار خلود فلا موت . فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم » .

وفى المسند عنه قال : « من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » . ثمّ أدخل أصبعيه فى أذنيه ثمّ قال : صُمّتا إن لم أكن سمعتُ النبىّ صلى الله عليه وسلم يقوله .

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها . ومن ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه طينة الخبال ، قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : عصارة أهل جهنم » .

وفيه أيضًا عنه مرفوعًا : « من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين

صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال : فإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة » .

وفى المسند أيضًا من حديث أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات مدمنًا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة . قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن » .

وفيه أيضًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى ، فآخذ بيمينه ، أو آخذ بشماله » .

وفى المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . وضرب لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا : كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا ، فأنضجوا ما قذفوا فيها » .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يضرب الجسر على جهنم ، فأكون أول من يجوز ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموثق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو ، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل » .

وفى صحيح مسلم عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى قتلت . قال كذبت ، ولكن قاتلت ليقال : هو جرئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : هو عالم ، فقد قيل ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل . ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقِىَ فى النار . ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، وفى لفظ : فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : كما أن خير الناس الأنبياء ، فشر الناس من تشبّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم ، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون ، وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأته ، فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم

قال : « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » .

وفى الصحيحين عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية ، قال : فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » .

وفى المسند عن معاذ قال : « أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تشرك بالله شيئًا ، وإن قتلت أو حرقت ، ولا تعقنّ والديك ، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمراً ، فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية ، فإن المعصية تحل سخط الله » .

والأحاديث فى هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا ، فلا ينبغى لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ، ويرسل نفسه فى المعاصى ، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن .

قال أبو الوفاء بن عقيل : احذره ولا تغتر به ، فإنه قطع اليد فى ثلاثة دراهم ، وجلد الحد فى مثل رأس الإبرة من الخمر ، وقد دخلت امرأة النار فى هرّة ، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدا[1] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دخل رجل الجنة فى ذباب ، ودخل رجل النار فى ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مَرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا . فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندى شىء . قالوا له : قرِّب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا فخلو سبيله ، فدخل النار . وقالوا

---

(١) انظر مع ذلك حديث أبى رافع فى ص ٢٧ .

للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئًا من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » . وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب .

وربما اتكل بعض المغترّين على ما يرى من نعم الله عليه فى الدنيا وأنه لا يغير به ، ويظن أن ذلك من محبة الله له ، وأنه يعطيه فى الآخرة أفضل من ذلك . وهذا من الغرور .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبى عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج » ثمّ تلا قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبلِسُون ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وقال بعض السلف : إذا رأيت الله يتابع عليك نعمَهُ وأنت مقيم على معاصيه فاحذره ، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُون النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُر بالرَّحْمٰن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِن فِضَّة وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يظهرُون . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُون ، وَزُخْرُفًا . وَإِنَّ كُلُّ ذٰلِكَ لما متاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَة عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِين ﴾ [الزخرف : ٣٣ – ٣٥] . وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَه وَنَعَّمَه فَيَقُول : رَبِّى أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاه فقَدَر عَلَيْهِ رِزْقَه فَيَقُولُ : رَبِّى أَهَانَن ، كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥ – ١٧] . أى ليس كل من نعّمته ووسّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته ، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهَنْته ، بل أبتلى هذا بالنعم ، وأكرم هذا بالابتلاء .

وفى جامع الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعطى الدنيا من يحبه ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » .

وقال بعض السلف : رُبَّ مستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم . ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم ، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم .

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها ، فآثرها على الآخرة ورضى بها من الآخرة ، حتى يقول بعض هؤلاء : الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، والنقد أحسن من النسيئة . ويقول بعضهم : ذرة منقودة ، ولا درة موعودة . ويقول آخر منهم : لذات الدنيا متيقنة ، ولذات الآخرة مشكوك فيها ، ولا أدع اليقين بالشك .

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله . والبهائم العجم أعقل من هؤلاء ، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شىء لم تقدم عليه ولو ضربت ، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه ، وهو بين مصدق ومكذب .

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له .

وقول هذا القائل : النقد خير من النسيئة ، جوابه : إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير . وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهى خير . فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفَس واحد من أنفاس الآخرة ؟ كما فى مسند الإمام أحمد والترمذى من حديث المستورد بن شداد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ » فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح

الجهل . وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة ، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة ؟ فأيما أولى بالعاقل ؟ إيثار العاجل فى هذه المدة اليسيرة ، وحرمان الخير الدائم فى الآخرة ، أم ترك شىء صغير حقير منقطع عن قرب ، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له ، ولا نهاية لعدده ، ولا غاية لأمده .

فأما قول الآخر : لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه . فيقال له : إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله ، أو تكون على يقين من ذلك ، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب ، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له . وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروه به عن الله ، وتجرّدْ وقُمْ لله ناظراً أو مناظراً ، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذى لا شك فيه ، وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه . ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه ، وأنكر ربوبيته وملكه ، إذ من المحال الممتنع عند كل ذى فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلًا ، لا يعلم شيئاً ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يثيب ، ولا يعاقب ، ولا يعز من يشاء ، ولا يذل من يشاء ، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتنى بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملا . وهذا يقدح فى ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به ، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه ؟ .

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عنى به هذه العناية ، ونقله فى هذه الأحوال ، وصرّفه فى هذه الأطوار ، لا يليق به أن يهمله ويتركه سُدًى ، لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرّفه حقوقه عليه ، ولا يثيبه ولا يعاقبه . ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا

يبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد ، وأن القرآن كلامه . وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك فى كتاب أيمان القرآن عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : ٣٨ : ٤٠] . وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾ [الذاريات : ٢١] وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده ، وصدق رسله . وإثبات صفات كماله .

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين : تقدير تصديقه ويقينه ، وتقدير تكذيبه وشكه .

فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل ؟ وهل فى الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلى بين يدى بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهياً غافلا ، لا يتذكر موقفه بين يدى الملك ، ولا يستعد له ، ولا يأخذ له أهبته .

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب .

أحدها : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ، ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيبًا شهادة .

وقد روى أحمد فى مسنده عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس المُخبر كالمعاين »[1] .

---

(١) المخبر : بفتح الباء ، اسم مفعول من الإخبار . والمعاين : اسم فاعل من المعاينة وهى رؤية الشىء بالعين ، والمراد أنه لا يستوى من يعلم الشىء بطريق الرؤية ومن يعرفه بإخبار الناس ، وفى نسخة « ليس الخبر كالمعاينة » .

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب فى كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تقاضى الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان . واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورُخَص التأْويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس فى الإيمان والأعمال ، حتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة فى القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون ﴾ [السجدة : ٢٤] :

فصل

فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور ، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور ، وحسن الظن هو الرجاء ، فمن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة وزاجراً له عن المعصية ، فهو رجاء صحيح . ومن كانت بطالته رجاء . ورجاؤه بطالة وتفريطاً ، فهو المغرور . ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه ، فأهملها ولم يبذرها . ولم يحرثها ، وحسن ظنه بأنه يأْتى من مغلها ما يأْتى من حَرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء . وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاؤه بأن يجيئه ولد من غير جماع ، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه ، وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبالله التوفيق .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ

الله أولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله ﴾ [البقرة : ٢١٨] فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات ؟ .

قال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره ، الباغين على عباده ، المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله .

وسر المسألة : أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة الله فى شرعه وقدره وثوابه وكرامته ، فيأتى العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ، ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ، ويضرب عما يعارضها ويبطل أثرها .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثانى : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه فى تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاء لا يقارنه شىء من ذلك فهو من باب الأمانى . والرجاء شىء والأمانى شىء آخر ، فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفـــوات .

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » . وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ .

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ ربهم يُؤْمِنُون ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِم لَا يَشْرِكُون ، وَالَّذِين يُؤْتُون مَا آتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون ، أُولئك يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُون ﴾ [المؤمنون : ٥٧ — ٦١] .

وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، ويخافون أن لا يتقبل منهم ، أولئك يسارعون فى الخيرات » . وقد روى من حديث أبى هريرة أيضاً .

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن .

ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف . ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن ، فهذا الصديق رضى الله عنه يقول : وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن ، ذكره أحمد عنه .

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد ، وكان يبكى كثيراً ويقول : أبكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا . وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل . وأتى بطائر فقلبه ثم قال : ما صيد من صيد ، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح ، فلما احتضر قال لعائشة : يا بنية إنى أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد ، فأسرعى به إلى ابن الخطاب . وقال : والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد .

وقال قتادة : بلغنى أن أبا بكر قال : ليتنى خضرة تأكلنى الدواب .

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : ٧] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه

وقال لابنه وهو فى الموت : ويحك ضع خدى على الأرض ، عساه أن يرحمنى ثم قال : بل ويل أمى . إن لم يغفر لى ثلاثاً ، ثم قضى . وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتخيفه ، فيبقى فى البيت أياما يعاد ، يحسبونه مريضاً ، وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء ، وقال له ابن عباس : مصر الله بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح ، وفعل . فقال : وددت أنى أنجو لا أجر ولا وزر .

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكى حتى يبل لحيته . وقال : لو أننى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

وهذا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وبكاؤه وخوفه . وكان يشتد خوفه من اثنتين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق : ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحد بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

وهذا أبو الدرداء رضى الله عنه كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال لى : يا أبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت فيما علمت ؟ وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة ، ولا شربتم شرابا على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم ، وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتنى كنت شجرةً تعضد ، ووددت أنى لم أخلق .

وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ، ومحرر يخدمنا ، وفضل عباءة ، وإنى أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية ، فلمّا أتى على هذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَات أَنْ نجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾ . [الجاثية : ٢١] جعل يرددها ويبكى حتى أصبح .

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح : وددت أنى كبش فذبحنى أهلى وأكلوا لحمى وحسوا مرقى . وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخارى فى صحيحه : « باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر »

وقال إبراهيم التيمى : ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذبا .

وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق .

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة . أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يعنى فى المنافقين ! فيقول : لا . ولا أزكى بعدك أحدًا » .

فسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : ليس مراده أنى لا أبرئ غيرك من النفاق ، بل المراد لا أفتح على نفسى هذا الباب فكل من سألنى هل سمانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزكيه . قلت : وقريب من هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم للذى سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب « سبقك بها عكاشة » ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب . وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم ، فكان الإمساك أولى ، والله أعلم .

فصل

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذى إن استمر أفسد دنيا العبد وآخـــرته .

فمما ينبغى أن يعلم : أن الذنوب والمعاصى تضر ، ولا بد أن ضررها فى القلب كضرر السموم فى الأبدان ، على اختلاف درجاتها فى الضرر . وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى ؟ .

فما الذى أخرج الأبوين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور ، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟ .

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ، وبدل بالقرب بعدًا ، وبالرحمة لعنة ، وبالجمال قبحًا ، وبالجنة نارًا تلظى ، وبالإيمان كفرًا ، وبموالاة الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة ، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش . وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان ، فهان على الله غاية الهوان . وسقط من عينه غاية السقوط ، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ، ومقته أكبر المقت فأرداه . فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم . رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة . فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك .

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟ ! وما الذى سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية . ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟ .

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ .

وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، فأهلكهم جميعًا ، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم ، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، وما هى من الظالمين ببعيد ؟ .

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى ؟ .

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ؟ .

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟ .

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً ؟ .

وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم ؟ .

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قومًا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء ، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرّة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبّروا ما علَوْا تتبيرا ؟ .

وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات ، مرّة بالقتل والسّبى وخراب البلاد ، ومرّة بجور الملوك ، ومرّة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ، [الأعراف : ١٦٧] .

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : « لما فتحت قبرص فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى ، فقلت :

يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فقال : ويحك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى » .

وقال علي بن الجعد : أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال : سمعت أبا البختري يقول : أخبرني من سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال : بلى . قلت : فكيف يصنع بأولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .

وفي مراسيل الحسن عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها وما لم يزك صلحاؤها فجارها ، وما لم يهن خيارها أشرارها ، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، ثمّ ضربهم الله بالفاقة والفقر » .

وفي المسند من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وفيه أيضًا عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعى الأكلة على قصعتها . قلنا : يا رسول الله أمِنْ قِلّة منا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت » .

وفى المسند من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عرّج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم » .

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج فى آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس مسوك الضأن[1] من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل : أبى يغترون ؟ وعلىّ يجترئون ؟ فبى حلفت ، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران » .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال علىّ : « يأتى على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة ، وهى خراب من الهدى ، علماؤهم شر من تحت أديم السماء ، منهم خرجت الفتنة ، وفيهم تعود » .

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : « إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله عز وجل بهلاكها » .

ومن مراسيل الحسن : « إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل ، وتحابوا فالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا الأرحام ، لعنهم الله عز وجل عند ذلك ، فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

وفى سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : « كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال : يا معشر المهاجرين ، خمس خصال

---

(١) مسوك الضأن : جلودها ، واحدها مسك ، بكسر فسكون

أعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة فى قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، فلولا البهائم لم يمطروا ، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل فى كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه النّاهى تعذيراً ، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه ، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس ، فلمّا رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . والذى نفس محمد بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ، ولتأطرنه على الحق أطراً . أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

وذكر ابن أبى الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعانى قال : « أوحى الله إلى يوشع بن نون أنى مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم ، وستين ألفًا من شرارهم . قال : يارب ، هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبى ، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم » .

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبى عمران قال : « بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية : أن دمراها بمن فيها ، فوجدا فيها رجلا قائماً يصلى فى مسجد ، فقالا :

يارب ، إن فيها عبدك فلانًا يصلى ، فقال الله عز وجل : دمراها ودمراه معهم ، فإنه ما تمعَّر وجهه فىَّ قط » .

وذكر الحميدى عن سفيان بن عُيينة قال : حدَّثنى سفيان بن سعيد عن مسعر « أن ملكًا أمر أن يخسف بقرية ، فقال : يارب ، إن فيها فلاناً العابد ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن به فابدأ ، فإنه لم يتمعَّر وجهه فى ساعة قط » .

وذكر ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قال : « لما أصاب داود الخطيئة قال : يارب اغفر لى ، قال : قد غفرت لك ، وألزمت عارها بنى إسرائيل ، قال : يارب ، كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحداً ، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى ؟ فأوحى الله إليه : إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار » .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك « أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر ، فقال لها الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمور ، وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل فى سمائه ، فقال للأرض : تزلزلى بهم ، فإن تابوا ونزعوا ، وإلا هدمها عليهم . قال : يا أم المؤمنين أعذابًا لهم ؟ قالت : بل موعظة ورحمة للمؤمنين ، ونكالا وعذابًا وسخطًا على الكافرين . فقال أنس : ما سمعت حديثًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أشد فرحًا [به] منى بهذا الحديث » .

وذكر ابن أبى الدنيا حديثًا مرسلا « أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، ثم قال : اسكنى ، فإنه لم يأن لك بعدُ . ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : إن ربكم ليستعتبكم فاعتبوه ، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب ، فقال : أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شىء أحدثتموه ، والذى نفسى بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدًا » .

وفى مناقب عمر لابن أبى الدنيا « أن الأرض تزلزلت على عهد عمر ، فضرب

يده عليها وقال : مالكِ ؟ ومالكِ ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدّثت أخبارها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق » .

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت : « زلزلت المدينة على عهد عمر ، فقال : يا أيها الناس ما هذا ؟ ما أسرع ما أحدثتم . لئن عادت لا أساكنكم فيها » .

وقال كعب : « إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصى فترعد فرقا من الرّب جل جلاله أن يطلع عليها » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار « أما بعد ، فإن هذا الرّجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا فى يوم كذا وكذا فى شهر كذا وكذا ، فمن كان عنده شيء فليتصدق به ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ، وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] وقولوا كما قال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ، وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين ﴾ [الأعراف : ٢٣] وقولوا كما قال نوح : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِنَ الخاسِرِين ﴾ [هود : ٤٧] وقولوا كما قال يونس : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا ضَنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم وتبايعوا بالعِينَة[1] ، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم » رواه أبو داود بإسناد حسن .

---

(١) العينة ، بكسر العين وفتح النون : النسيئة . وفسرها الفقهاء : بأن يبيع الرجل متاعه إلى أجل ثم يشتريه فى المجلس بثمن حال ليسلم به من الربا وهى أخت الربا .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال : لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذَا ضَنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم ، وتبايعوا بالعِينة ، وتركوا الجهاد في سَبيل الله ، وأخذوا أذناب البقر ، أنزل الله عليهم من السماء بلاء ، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » .

وقال الحسن : « إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس »

ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُختنصَّر فقال : « بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا » .

وقال بختنصر لدانيال : ما الذي سلطني على قومك ؟ قال « عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال وأعقم أرحام النساء ، فتنزل النقمة ، وليس فيهم مرحوم » .

وذكر عن مالك بن دينار قال : قرأت في الحكمة : يقول الله عز وجل : « أنا الله مالك الملوك . قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم » .

ومن مراسيل الحسن « إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم ، وفيئهم عند سُمحائهم ، وإذا أراد الله بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم ، وفيئهم عند بخلائهم » .

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال : قال موسى « يارب ، أنت في السماء ، ونحن في الأرض ، فما علامة غضبك من رضاك ؟ قال : إذا استعملت

عليكم خياركم فهو علامة رضائى عنكم ، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطى عليكم » .

وذكر ابن أبى الدنيا عن الفضيل بن عياض قال « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » .

وذكر أيضًا من حديث ابن عمر يرفعه « والذى نفسى بيده ، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعوانًا خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقراء فسقة ، سيماهم سيماء الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة ، فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون فيها ، والذى نفس محمد بيده ليُنقضَن الإسلام عروة عروة ، حتى لا يقال الله الله . لتأمُرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلِّطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . لتأمُرنَّ بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ، ولا يوقر كبيركم » .

وفى معجم الطبرانى وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما طفف قوم كيلا ، ولا بخسوا ميزانا ، إلا منعهم الله عز وجل القطر ، وما ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت ، وما ظهر فى قوم الرِّبا إلا سلط الله عليهم الجنون ، ولا ظهر فى قوم القتل - يقتل بعضهم بعضاً - إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف ، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم » ورواه ابن أبى الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به .

وفى المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت : « دخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حفزه النفس ، فعرفت فى وجهه أن قد حفزه شىء ، فما

تكلم حتى توضأ ، وخرج ، فلصقت بالحجرة . فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعونى فلا أجيبكم ، وتستنصرونى فلا انصركم ، وتسألونى فلا أعطيكم » .

وقال العمرى الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك ، وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ، ولا تأمر فيه ، ولا تنهى عنه ، خوفًا ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعا .

وقال : من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفّ بحقه .

وذكر الإمام أحمد فى مسنده من حديث قيس بن أبى حازم قال : قال أبوبكر الصديق « أيها الناس ، إنكم تتلون هذه الآية ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه – وفى لفظ : إذا رأوا المنكر فلم يغيروه – أوشك أن يعُمّهم الله بعقاب من عنده » .

وذكر الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغير ضرّت العامة » .

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب « توشك القرى أن تخرب وهى عامرة ؟ قيل : وكيف تخرب وهى عامرة ؟ قال : إذا علا فجّارُها أبرارها ، وساد القبيلة منافقوها » .

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :

« سيظهر شرار أمتى على خيارها ، حتى يستخفى المؤمن فيهم ، كما يستخفى المنافق فينا اليـوم » .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال « يأتى زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء . قيل : مم ذاك يا رسول الله ؟ قال : مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره » .

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب » .

وفى صحيح البخارى عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرّجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه فى النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار ، فيقولون : أىْ فلانُ ، مَا شَأْنك ؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : بلى ، إنى كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال : « كان حبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء ، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله ، فرأى بعض بنيه يومًا يغمز النساء ، فقال : مهلا يا بنى [مهلا يا بنى] . فسقط من سريره ، فانقطع نخاعه ، وأسقطت امرأته ، وقتل بنوه ، فأوحى الله إلى نبيهم : أن أخبر فلانًا الحبر : أنى لا أخرج من صلبك صدِّيقًا أبدًا ، ما كان غضبك لى إلا أن قلت : مهلا يا بنى » .

وذكر الإمام أحمد من حديث عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فَلاة ،

فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها » .

وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات » .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « عُذبت امرأة فى هِرّة ، سجنتها حتى ماتت ، فدخلت النار ، لا هى أطعمتها ولا سقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

وفى الحلية لأبى نعيم عن حذيفة أنه قيل له : فى يوم واحد تركتْ بنو إسرائيل دينهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشىء تركوه ، وإذا نُهوا عن شىء ركبوه ، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه » .

ومن ههنا قال بعض السلف : المعاصى بريد الكفر ، كما أن القُبلة بريد الجماع ، والغناء بريد الزنا ، والنظر بريد العشق ، والمرض بريد الموت .

وفى الحلية أيضًا عن ابن عباس أنه قال : « يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته ، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته : قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال — وأنت على الذنب — أعظم من الذنب ، وضحكك وأنت لا تدرى ما الله صانع بك أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب ، وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ، ويحك هل تدرى ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء فى جسده وذهاب ماله ؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه ، فلم يعنه ، ولم ينه الظالم عن ظلمه ، فابتلاه الله » .

قال الإمام أحمد : حدَّثنا الوليد قال : سمعت الأَوزاعى يقول : سمعت بلال ابن سعد يقول « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى من عصيت » .

وقال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله .

وقيل : أَوحى الله إلى موسىٰ ، يا موسىٰ إن أَول من مات من خلق إبليس ، وذٰلك أَنه عصانى ، وإنما أعد من عصانى من الأَموات .

وفى المسند وجامع الترمذى من حديث أَبى صالح عن أَبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا أَذنب [ذنبًا] نُكِت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، حتى تعلو قلبه . فذلك الران الذى ذكره الله عز وجل﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وقال حذيفة : « إذا أَذنب العبد [ذنبًا] نُكِت فى قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرَّبداء »[1] .

وقال الإمام أَحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أَبى عن صالح عن ابن شهاب حدَّثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَما بعد يا معشر قريش ، فإنكم أَهل لهذا الأَمر ما لم تعصوا الله ، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحَى هذا القضيب بقضيب فى يده ، ثم لحى قضيبه فإذا هو أَبيض يَصْلد » .

وذكر الإمام أَحمد عن وهب قال : إن الرّب عز وجل قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل « إنى إذا أُطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتى

---

(١) فى نسخة « الرمداء » .

نهاية ، وإذا عُصيت غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تبلغ السابع من الولد »

وذكر أيضًا عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال : كتبت عائشة إلى معاوية « أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا » .

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبى الْجَعد عن أبى الدرداء قال « ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ، ثم قال : تدرى مم هذا ؟ قلت : لا ، قال : إن العبد يخلو بمعاصى الله ، فيُلقى الله بُغضه فى قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر » .

وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين : أنه لما ركبه الدَّين اغتم لذلك ، فقال : إنى لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة .

وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس فى أمر الذنب ، وهى أنهم لا يرون تأثيره فى الحال ، وقد يتأخر تأثيره فينسى ، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك ، وأن الأمر كما قال القائل :

إذا لم يغبر حائط فى وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق ؟ وكم أزالت من نعمة ؟ وكم جلبت من نقمة ؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء ، فضلا عن الجهال ! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمِل على الغش والدَّغل .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء « اعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واعلموا أن قليلا يغنيكم خير من كثر يلهيكم ، واعلموا أن البر لا يبلى ، وأن الإثم لا يُنسى » .

ونظر بعض العبّاد إلى صبي فتأمل محاسنه ، فأُتي في منامه وقيل له : لتجدن غِبّها [1] بعد أربعين سنة .

وهذا مع أن للذنب نقدًا معجلا لا يتأخر عنه ، قال سليمان التيمى : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مَذلته .

وقال يحيي بن معاذ الرازى : عجبت من ذى عقل يقول في دعائه : اللّهم لا تشمّت بي الأعداء ، ثمّ هو يشمّت بنفسه كل عدو له ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يعصى الله ويشمت به في القيامة كل عدو .

وقال ذو النون : من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية .

فصل

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله .

فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطفئ ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته . وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعي رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى   فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وقال : اعلم بأن العلم فضل   وفضل الله لا يؤتاه عاصى

ومنها : حرمان الرزق . وفى المسند « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »

---

(١) غبها : بكسر الغين وتشديد الباء : عاقبتها .

وقد تقدم . وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق ، فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصى .

ومنها : وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلا . ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة . وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حرياً بتركها .

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه ، فقال له :

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب ، فالله المستعان .

ومنها : الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بَعُد منهم ومن مجالستهم ، وحُرِمَ بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم ، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشاً من نفسه .

وقال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خُلق دابتى وامرأتى .

ومنها : تعسير أموره عليه ، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً ، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً ، ويالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ؟ .

ومنها : ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم ادلهَمَّ ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته ، حتى يقع فى البدع

والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر ، كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده . وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ، ثمّ تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : « إن للحسنة ضياء فى الوجه ، ونوراً فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً فى الوجه ، وظلمة فى القلب ، ووهناً فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » .

ومنها : أن المعاصى توهن القلب والبدن ، أما وَهَنها للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية .

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته فى قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه . وأما الفاجر فإنه – وإن كان قوى البدن – فهو أضعف شىء عند الحاجة ، فتخونه قوّته أحوج ما يكون إلى نفسه . وتأمل قوّة أبدان فارس والرّوم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟ .

ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أخرى ، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ، ثمّ رابعة وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدّة أكلات أطيب منها ، والله المستعان .

ومنها : أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد ، فإن البر كما يزيد فى العمر فالفجور يقصر العمر .

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع .

فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه .

وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصي .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه البركة فى الرزق أسبابًا كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده .

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق والآجال ، والسعادة والشقاوة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وإن كانت بقضاء الرّب عزّ وجل ، فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب . ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حى ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلّا أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر والتقوى والطّاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول ﴿ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ ، [النازعات : ٢٤] . فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا ، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلًا ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعسّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

فصل

ومنها : أن المعاصى تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضًا ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملنى أيضًا ، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك ، وهلم جرا ، فتضاعف الرّبح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك جانب السيئات أيضًا ، حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحُبت ، وأحسّ من نفسه بأنه كالحوت إذ فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطّاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذّة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسَن بن هانى حيث يقول :

وكأس شربت على لـــذة   وأخرى تداويت منها بها

وقال آخـــر :

فكانت دوائى ، وهى دائى بعينه   كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطّاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزاً ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشّياطين فتؤزه إليها أزًا ، فالأول قوى جند الطّاعة بالمدد ، فصاروا من أكبر أعوانه . وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه .

فصل

ومنها — وهو من أخوفها على العبد — أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكليّة فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتى من الاستغفار وتوبة الكذّابين باللّسان بشىء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصِرٌّ عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه . وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك .

فصل

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية النفس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللّذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، ويسد عليهم طريق التوبة ، وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب . كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ أُمَّتِى معافى إلّا المُجَاهِرُون ، وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَار : أَنْ يَسْتُر اللهُ الْعَبْد ثُمّ يصْبح يَفْضح نفْسه وَيَقُول : يَافُلَان عَمِلتُ يَوْم كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ، فهتَكَ نَفْسَهُ ، وقَد بَاتَ يَسْتُرُه رَبّه » .

ومنها : أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أُمة من الأُمم التى أهلكها الله عزّ وجل ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو فى الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون ، والتكبّر والتجبّر ميراث عن قوم هود ، فالعاصى لابس ثيابَ بعضِ هذه الأُمم ، وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد فى كتاب الزُّهد لأبيه عن مالك بن دينار قال :

أوحى الله إلى نبيّ من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك : لا يدخلوا مداخل أعدائى ، ولا يلبسوا ملابس أعدائى ، ولا يركبوا مراكب أعدائى ولا يطعموا مطاعم أعدائى ، فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى » .

وفى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبيّ صلى الله عليهِ وسلم : قال : « بُعِثْتُ بِالسَّيفِ بَيْنَ يَدَى السَّاعة ، حَتَّى يُعْبَدُ اللهِ وَحْده لَا شَرِيكَ له ، وَجَعَلَ رِزْقى تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِى ، وَجَعل الذِّلَّةَ وَالصغار عَلَىٰ مَنْ خالَفَ أَمْرِى ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » .

فصل

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه . قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزُّوا عليه لعصمهم . وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم إليهم ، أو خوفا من شرها ، فهم فى قلوبهم أحقر شىء وأهونه .

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر فى قلبه . وذلك علامة الهلاك ، فإن الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله .

وقد ذكر البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود قال « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، فطار » .

فصل

ومنها : أن غيره من الناس والدّواب يعود عليه شؤم ذنبه ، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم .

قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم .

وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة ، وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم .

وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون[1] : منعنا القطر بذنوب بنى آدم .

فلا يكفيه عقاب ذنبه ، حتى يلعنه من لا ذنب له .

فصل

ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد ، فإن العز كل العز فى طاعة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] أى فليطلبها بطاعة الله ، فإنه لا يجدها إلا فى طاعة الله .

وكان من دعاء بعض السلف : اللَّهُمَّ أعِزَّنى بِطَاعَتِكْ ، وَلَا تَذِلَّنى بِمَعْصِيَتِكْ .

وقال الحسن البصرى : إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إنَّ ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلَّا أنْ يُذِلَّ من عَصَاه .

وقال عبد الله بن المبارك :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وقدْ يُورِث الذُّل إدْمانها
وترك الذُّنوب حياة القلوب ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانها
وهَلْ أفْسَدَ الدِّينَ إلَّا الملُوك ... وَأحْبَار سُوءٍ وَرُهْبَانها ؟

ومنها : أن المعاصى تفسد العقل ، فإن للعقل نوراً ، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد ، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص .

---

(١) عبر عنها بضمير العقلاء فى قوله « يقولون » لنسبة القول إليها . والقطر — بفتح فسكون : المطر .

فصل

وقال بعض السلف : ما عصىٰ اللهَ أحدٌ حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر ، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرّب تعالىٰ ، أو تحت قهره ، وهو مُطَّلع عليه ، وفى داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ! وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السُّرور واللَّذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟ .

فصل

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين. كما قال بعض السَّلف فى قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ما كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ [المطففين : ١٤] قال : هو الذنب بعد الذنب .

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب .

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا . ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلا وختمًا . فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولّاه عدوه ويسوقه حيث أراد .

فصل

ومنها : أن الذُّنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لعن على معاصى والتى غيرها أكبر منها فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة

فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة ، والواشرة والمستوشرة ، ولعن آكل الرِّبا ومؤكله ، وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلِّل والمحلَّل له ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيها ، وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها وحاملها والمحموله إليه . ولعن مَن غيّر منار الأرض وهى أعلامها وحدودها ، ولعن مَن لعن والديه ، ولعن مَن اتخذ شيئا فيه الروح غرضًا يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا ، ولعن المصورين ، ولعن من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط . ولعن من سب أباه وأُمه ، ولعن من كمه أعمى[1] عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من وسم دابة فى وجهها ، ولعن من ضار مسلمًا أو مكر به ، ولعن زَوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكًا على سيده ، ولعن من أتى امرة فى دبرها ، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب إلى غير أبيه ، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة .

وقد لعن الله [فى كتابه] من أفسد فى الأرض وقطع رحمه ، وآذاه وآذى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البيّنات والهدى .

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين[2] .

ولعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الرجلَ يلبس لِبسة المرأة ، والمرأة تلبس

---

(١) كمه أعمى : يريد أنه أضله وعمى عليه ولم يرشده إلى مقصده .

(٢) فى نسخة « سبيل الكافر أهدى من سبيل المسلم »

لِبسة الرجل ، ولعن الراشي والمرتشي والرائش — وهو الواسطة فى الرشوة — ولعن على أشياء أخر غير هذه .

فلو لم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو إلى تركه .

فصل

ومنها : حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة ، فإن الله سُبحانه أمر نبيّه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِين يَحْمِلُونَ العَرْش ومنْ حَوْلَهُ يُسبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتغْفِرُون لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذينَ تَابُوا وَاتَّبعُوا سبِيلَكَ ، وقِهِمْ عذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وعَدتَّهم وَمنْ صَلح مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ ، إنَّكَ أَنت الْعزِيزُ الحَكِيمُ ، وقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ومَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه ، وَذَٰلِك هُوَ الْفوْزُ العَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ — ٩] .

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما ، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها ، والله المستعان .

فصل

ومن عقوبات المعاصى ، ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمرة بن جُندب قال : « كان النبيّ صلىٰ الله عليه وسلّم مما يكثر أن يقول لأصحابه : هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ البَارِحَة رُؤْيا ؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص ، وإنه قال لنا ذات غداة : إنه أتانى اللّيلة آتيان ، وإنهما انبعثا لى ، وإنهما قالا لى : انطلق ، وإنى انطلقت معهما ، وإنا أتينا علىٰ رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة

وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه ، فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر[١] هاهنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتّى يصح رأسه كما كان ، ثمّ يعود عليه ، فيفعل به مثل ما فعل فى المرّة الأُولى . قال : قلت لهما : سُبحان الله ! ما هذا ؟ قالا لى : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلّوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقَّىْ وجهه ويشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الاخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأوّل فما يفرغ من ذلك الجانب حتّى يصح ذلك الجانب كما كان . ثمّ يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرّة الأُولى . قال : قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟ فقالا لى : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنّور ، فإذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطلعنا فيه ، فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منها ، فإذا أتاهم ذلك اللّهب ضَوْضوا[٢] . فقال : قلت لهم : ما هؤلاء ؟ قالا لى : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على نهر أحمر مثل الدّم ، فإذا فى النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النّهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السّابح يسبح ما شاء الله أن يسبح ، ثمّ يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً ، فينطلق فيسبح ، ثمّ يرجع إليه ، كلما رجع إليه ففغر له فاه ، فيلقمه حجراً ، قلت لهما : ما هذان ؟ قالا لى : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المَرآة أو كأكره ما أنت راءٍ رجل مرأى ، وإذا هو عنده نار يحشها[٣] ويسعى حولها ، قال قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لى : انطلق . . انطلق ، انطلقنا حتّى أتينا على روضة مُعتمة[٤] ، فيها من كل نور الرّبيع[٥] ، وإذا بين

---

(١) يثلغ : يشدخ ، ويتدهده : يتدحرج . (٢) أى ضجوا وصاحوا . (٣) أى يوقدها ويلهبها

(٤) الروضة : الأرض الخصبة ، والمعتمة – بضم الميم الأولى وتشديد الميم الثانية ، أى وافية النبات طويلته . (٥) نور الربيع بفتح النون : زهره

ظهرانى الرّوضة رجل طويل ، لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء ، وإذا حول الرّجل من أكثر ولدان رأيتهم قط ، قال : قلت : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟ قال : قالا لى : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا إلى دوحة عظيمة [1] لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن ، قال : قالا لى : ارق فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، قال : فأتينا باب المدينة ، فاستفتحنا ، ففتح لنا فدخلناها ، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطر منهم كأقبح ما أنت راءٍ ، قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، قال : وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض [2] فى البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثمّ رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، قال : قالا لى : هذه جنة عدن ، وهاذاك منزلك ، قال : فسما بصرى صعداً ، فإذا قصر مثل الربابة [3] البيضاء ، قال : قالا لى : هذا منزلك ، قلت لهما : بارك الله فيكما فذرانى فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله ، قلت لهما : فإنى رأيت منذ اللّيلة عجبًا ، فما هذا الذى رأيت ؟ قال : قالا لى : أما إنا سنخبرك :

أما الرّجل الأوّل الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن ، فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرّجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرّجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرّجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزوانى

وأما الرّجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ، ويلقم الحجارة ، فإنه آكل الرّبا .

---

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة

(٢) المحض : الخالص من كل شيء ، والمراد به هنا اللبن

(٣) الربابة : السحابة .

وأما الرّجل الكريه المرآة الذى عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرّجل الطويل الذى فى الروضة ، فإنه إبراهيم .

وأما الولدان الذين حوله ، فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى: ولد على الفطرة - فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا شَطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم .

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصى : أنها تُحدث فى الأَرض أنواعًا من الفساد فى المياه والهواء ، والزروع والثمار ، والمساكن . قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ والْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاس ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [الرُّوم : ٤١] .

قال مجاهد : إذا ولى الظالم سعى بالظلم [والفساد] فيحبس الله بذلك القطر فيُهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . ثمّ قرأ : ﴿ ظهرَ الفسادُ فى البرِّ والبحرِ بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر . وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر ، أما إنى لا أقول لكم : بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماءٍ . وقال قتادة : أما البر فأَهل العمود ، وأَما البحر فأَهل القرى والرّيف .

قلت : وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبحْرانِ . هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائغٌ شَرَابُهُ ، وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، [فاطر : ١٢] وليس فى

العالم بحر حلو واقف ، وإنما هى الأنهار جارية ، والبحر المالح هو الساكن ، فسمى القرى التى عليها المياه الجارية باسم تلك المياه . وقال ابن زيد : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ فِى الْبرِّ والبَحْرِ ﴾ قال : الذنوب .

قلت : أراد أن الذنوب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام فى قوله ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عمِلُوا ﴾ لام العاقبة والتعليل . وعلى الأول : فالمراد بالفساد ، النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض عند معاصى العباد ، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة ، كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقـــوبة .

والظَّاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذُّنوب وموجباتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا . وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا ، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تـأثير المعاصى فى الأرض : ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها ، وقد مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود . فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون ، ومن شُرب مياههم ، ومن الاستسقاء من آبارهم ، حتى أمر أن يعلف العجين الذى عجن بمياههم للنواضح [١] لتـأثير شؤم المعصية فى الماء ، وكذلك تـأثير شؤم الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال : « وجد فى خزائن بنى أمية : حبة حنطة بقدر نواة التمرة ، وهى فى صرّة مكتوب عليها : هذا كان ينبت فى زمن العدل » وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب .

---

(١) النواضح : الإبل يستق عليها الماء ، واحدها ناضح .

وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هى الان ، وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها ، وإنما حدثت من قرب .

وأما تأثير الذّنوب فى الصّور والخلق ، فقد روى الترمذى فى جامعه عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِى السَّمَاءِ سِتُّونَ ذِراعًا ، فلَمْ يزَل الْخَلقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآن » فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة ، يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلّم فيملأُ الأرض قسطًا كما ملئت جوراً ، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارى ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركتها ، وتعود كما كانت ، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ، وأن اللقحة الواحدة لتكفى الفئام من الناس[1] ، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التى محقتها الذّنوب والكفر : ولا ريب أن العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقيت آثارها سارية فى الأرض ، تطلب ما يشاكلها من الذّنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار فى الأرض من آثار تلك العقوبات ، كما أن هذه المعاصى من آثار تلك الجرائم . فتناسبت كلمة الله وحكمه الكونى أولاً وآخراً ، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه فى دار البرزخ ودار الجزاء .

وتأمّل مقارنة الشيطان ومحله وداره ، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره ، وعمله ، وقوله ، ورزقه ، ولما أثرت طاعته فى الأرض ما أثرت

---

(١) الفئام : الجماعة الكثيرة العدد .

زعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرّحمة والبركة .

فصل

ومن عقوبات الذنوب : أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التى هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فالغيرة حرارته وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصّفات المذمومة ، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم همّة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس . ولهذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم أغير الخلق على الأُمة ، والله سبحانه أشد غيرة منه ، كما ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيرَةِ سَعْد ؟ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّى » .

وفى الصحيح أيضًا أنه قال فى خطبة الكسوف : « يَا أُمَّةَ مُحَمّد مَا أَحدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِي عَبْدَهُ أَوْ تَزْنِى أَمَتُهُ » .

وفى الصحيح أيضًا عنه أنه قال : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ ، مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظهرَ مِنْهَا ومَا بَطَنْ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذر مِن الله ، مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِين وَمُنْذِرِين ، ولَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْح مِنَ الله ، مِن أَجْلِ ذٰلِكَ أَثنى عَلَىٰ نفْسِهِ » فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها ، وبين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرّحمة والإحسان ، والله سبحانه – مع شدة غيرته – يحب أن يعتذر إليه عبده ، ويقبل عذر من اعتذر إليه ، وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم ، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً ، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال ، فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، ومن غير قبول لعذر من

اعتذر إليه ، بل يكون له فى نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلّةِ الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير ، ويرى عذراً ما ليس بعذر ، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر ، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق .

وقد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « إنَّ مِنَ الغِيرَةِ مَا يُحِبُّها الله ، وَمِنْهَا مَا يبْغَضُهُ الله ، فالّتى يبْغَضُهَا الله الغِيرَة فِى غَيْرِ رِيْبَةٍ » وذكر الحديث .

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر ، فيغار فى محل الغيرة ، ويعذر فى موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًّا .

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له ، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ، ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها ، وأدخلته على ربه ، وأدنته وقرّبته من رحمته ، وصيّرته محبوبا له ، فإنّه سبحانه رحيم يُحب الرّحماء ، كريم يُحب الكُرماء ، عَليم يُحب العُلماء ، قوى يُحب المؤمن القوى ، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حيٌّ يُحب أهل الحياء ، جَميل يُحب أهل الجمال ، وتر يُحب أهل الوتر .

ولو لم يكن فى الذُّنوب والمعاصى إلّا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصّفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والإرادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة . وحينئذ يتعذر الخروج منها ، كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به .

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على

نفسه وأهله وعموم الناس . وقد تضعف فى القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك . وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح ، بل يحسّن الفواحش والظلم لغيره ، ويزينه له ، ويدعوه إليه ، ويحثه عليه ، ويسعى له فى تحصيله . ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله ، والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه له . فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة .

وهذا يدُلُّك على أن أصل الدين الغيرة ، ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح ، فتدفع السوء والفواحش . وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح ، فلا يبقى عندها دفع ألبتة . ومثل الغيرة فى القلب مثل القوّة التى تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة وَجد الدَّاء المحلَّ قابلًا ، ولم يَجد دافعًا ، فتمكن فكان الهلاك .

ومثلها مثل صياصى الجاموس[1] التى يدفع بها عن نفسه وولده ، فإذا كُسرت[2] طمع فيه عدوّه .

فصل

ومن عقوباتها : ذهاب الحياء الذى هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه[3] .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحيَاءُ خيْر كلُّه » .

وقال : « إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاس مِنَ الكلَام النُّبُوَّة الأُولَىٰ : إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنعْ مَا شِئْتَ » . وفيه تفسيران :

---

(١) صياصى الجاموس : قرونها (٢) فى نسخة « تكسرت »

(٣) فى نسخة « وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه »

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح ، إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها . وهذا تفسير أبي عُبيدة .

والثاني : أن الفعل إذا لم تستحِ من الله فافعله ، وإنما الذى ينبغى تركه هو ما يستحيي منه من الله ، وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانئ .

فعلى الأول يكون تهديدًا ، كقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصّلت : ٤٠] وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة .

فإن قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين ؟ .

قلت : لا ، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر .

والمقصود أن الذُّنوب تضعف الحياء من العبد ، حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل ، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق فى صلاحه مطمع .

وَإذا رَأىٰ إبْلِيسُ طَلعةَ وَجْهِـهِ   حيًّا وقال : فَدَيْتَ مَنْ لَا يفْلَح

والحياءُ مشتق من الحياة ، والغيث يسمى حيا - بالقصر - لأن به حياة الأرض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه [فهو] ميت فى الدنيا شقى فى الاخرة ، وبين الذُّنوب وبين قِلَّة الحياء وعدم الغِيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثًا ، ومن استحيي من الله عند معصيته استحيي الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته [1] .

---

(١) فى نسخة « ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته » .

فصل

ومن عقوبات الذُّنوب : أنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جلّ جلاله ، وتضعف وقاره فى قلب العبد ولا بد ، شاء أم أبى . ولو تمكّن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تَجرَّأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر ، وقال : إنما يحملنى على المعاصى حسن الرّجاء ، وطَمعى فى عَفوه ، لا ضعف عظمته فى قلبى . وهذا من مغالطة النفس ، فإن عظمة الله تعالى وجلاله فى قلب العبد [تقتضى تعظيم حرماته] وتعظيم حرماته تحولُ بينه وبين الذُّنوب ، والمتجرِّئون على معاصيه ما قَدَّروا الله حقَّ قدره ، وكيف يقدِّره حقَّ قدره ، أو يعظِّمه ويكبِّره ، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبين الباطل . وكفى بالمعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جلّ جلاله ، وتعظيم حرماته ، ويهون عليه حقه .

ومن بعض عقوبة هذا : أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ، ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبّة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق ، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس ، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته ؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ؟ أم كيف يستخف بمعاصى الله ولا يستخف به الخلق ؟ .

وقد أشار سبحانه إلى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذُّنوب ، وأنه أرْكس أربابها بما كسبوا ، وغطى على قلوبهم ، فطبع عليها بذنوبهم ، وأنه نسيهم كما نسوه ، وأهانهم كما أهانوا دينه ، وضيعهم كما ضيعوا أمره ، ولهذا قال تعالى فى آية سجود المخلوقات له : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فما لهُ مِن مُكرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله ، فلم يكن

لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله ، ومن ذا يكرم من أهانه الله ؟ أو يهين من أكرمه الله ؟ .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه ، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهناك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٨ — ١٩] فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى أنساه مصالحها ، وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية ، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه ، والقيام بأمره ، فترى العاصى مهملا لمصالح نفسه ، مضيعًا لها ، وقد أغفل قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطًا ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته ، وقد فرط فى سعادته الأبدية ، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة ، إنما هى سحابة صيف أو خيال طيف ، كما قيل :

أحلام نوم ، أو كظل زائل   إن اللبيب بمثلها لا يُخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه ، وإهماله لها ، وإضاعته حظها ونصيبها من الله ، وبيعه (١) ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن ، فضيع من لا غنى له عنه ، ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض :

من كل شىء إذا ضيعته عوض   وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض كل ما سواه ولا يعوض منه شىء ، ويغنى عن

---

(١) فى نسخة : « وبيعها » .

كل شيء ولا يغني عنه شيء ، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء . ويمنع من كل شيء ، ولا يمنع منه شيء ، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه ، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه . وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين . فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي ، فإن من عبدَ الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية ، فضلا عن مواقعتها ؛ فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه صحبة رفقته الخاصة ، وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فإن أراد الله به خيراً أقرّه فى دائرة عموم المؤمنين ، فإن عصاه بالمعاصي التى تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لَا يزنى الزَّانى حينَ يَزْنى وَهُوَ مؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبها وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حَينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبة ذَاتَ شرَف يَرفع إلَيْهِ فِيهَا النَّاس أبْصَارهم حَينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » فإياكم إياكم ، والتوبة معروضة بعد .

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته [1] كل خير رتبه الله فى كتابه على الإيمان ، وهو نحو مائة خصلة

(١) الواو فى قوله : « وفاته » زائدة ، ليكون قوله « فاته » جواب « من » . وفى نسخة « ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان فإنه حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله ... إلخ » .

كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الأجر العظيم : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١٤٦]

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] .

ومنها استغفار الملائكة حملة العرش لهم : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] .

ومنها موالاة الله لهم ، ولا يذل مَنْ مولاه الله ، قال الله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] .

ومنها : أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم .

ومنها العزة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

ومنها معيّة الله لأهل الإيمان : ﴿ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ومنها الرفعة فى الدنيا والآخرة : ﴿ يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ومنها : إعطاؤهم كِفْلَيْن من رحمته . وإعطاؤهم نوراً يمشون به ، ومغفرة ذنوبهم .

ومنها : الود الذى يجعله الله سبحانه لهم ، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

ومنها : أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

ومنها : أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرّة .

ومنها أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٤] .

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الإيمان . [وكل شر فى الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان] فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه ، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين ؟ فإن استمر على الذّنوب وأصرّ عليها خيف عليه أن يَرِين على قلبه ، فيخرجه عن الإسلام بالكلية . ومن ههنا اشتد خوف السّلف ، كما قال بعضهم : أنتم تخافون الذّنوب ، وأنا أخاف الكفر .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة ، أو تعوّقه أو توقفه وتقطعه عن السير ، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بالذّنوب ضعفت تلك القوّة التى تُسَيِّره ، فإن زالت بالكليّة انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه ، والله المستعان .

فالذّنب إما أن يُميت القلب ، أو يمرضه مرضًا مخوفًا ، أو يُضعف قوته ولا بد ، حتى ينتهى ضعفه إلى الأشياء الثمانية التى استعاذ منها النبىّ صلى الله

عليه وسلَّم وهي : « الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدَّين [١] وغلبة الرّجال » وكل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم . وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن .

والعجز والكسل قرينان ، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل .

والجبن والبخل قرينان ، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن ، وإن كان بماله فهو البخل .

وضَلع الدَّين وقهر الرّجال قرينان ، فإن استعلاء [٢] الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدَّين ، وإن كان بباطل فهو قهر الرّجال .

والمقصود أن الذُّنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة : « لجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » . ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله ، وتحوّل عافيته إلى نقمته ، وتجلب جمع سخطه .

فصل

ومن عقوبات الذُّنوب : أنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلَّا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب . كما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة » . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى :

(١) ضلع الدين : ثقله حتى يغلب ويقهر .

(٢) في نسخة « استيلاء الغير عليه » .

٣٠] . وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

فأخبر الله تعالى أنه لا يغيّر نعمه التى أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغيّر ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غير غُير عليه ، جزاء وفاقاً ، وما ربُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . فإن غيَّر المعصية بالطَّاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية ، والذل بالعز . وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَه ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

وفى بعض الآثار الإلٰهية ، عن الرّب تبارك وتعالى أنه قال : « وَعِزَّتِى وَجَلَالِى لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِى عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ مَا أَكْرَهُ ، إِلَّا انْتَقَلَتْ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَىٰ مَا يكْرَه ، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِى عَلَىٰ مَا أَكْرَه ثُمَّ يَنتقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ مَا أُحِبُّ إِلَّا انْتَقَلَتْ لَهُ مِمَّا يَكْره إِلَى مَا يُحِبُّ » .

ولقد أحسن القائل :

إذا كنت فى نعمة فارْعها ... فإن الذُّنوب تزيل النعم
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد ... فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ، ولا تتهم
وما كان شىء عليهم أضر ... من الظلم وهو الذى قد قصم (١)
فكم تركوا من جنان ومن ... قصور ، وأُخرى عليهم أطم (٢)
صَلُوا بالجحيم وفات النعيم ... وكان الذى نالهم كالحلم (٣)

(١) قصم : من قاصمة الظهر ، أى أنه يضعف القوة .
(٢) أطم : أشد وأفظع . (٣) صلوا : احترقوا .

فصل

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله سبحانه من الرّعب والخوف فى قلب العاصى ؛ فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا ، فإن الطّاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة ، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ؛ فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانًا ، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ؛ فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنّه بين جناحى طائر ، إن حركت الرّيح الباب قال : جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب ، يحسب أن كل صيحة عليه ، وكل مكروه قاصداً إليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء :

بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا ... أن المخاوف والإجرام فى قرن

ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العظيمة فى القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً ؛ قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبين نفسه [1] ، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة ، وأمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووازن لذّة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، إذ باع أُنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعى له ، كما قيل :

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب ... فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرّب سبحانه ، فكلما اشتد القرب قوى الأُنس ، والمعصية توجب العبد من الرّب ، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما ، وإن كان ملابساً له

---

(١) هكذا فى الخطية ، وفى نسخة : « وبينه وبين الخلق ، وبينه ربين نفسه » وربما كانت أكثر فائدة .

قريباً منه ، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب ، وإن كان بعيداً عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة ، فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية وأشد منها وحشة الشرك والكفر ، ولا تجد أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه . فتعلو الوحشة وجهه وقلبه ، فيستوحش ويستوحش منه .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه ، فلا يزل مريضاً معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه ، فإن تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها إلا تركها . وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دواها ، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهواها مرضها ، وشفاها مخالفته ، فإن استحكم المرض قتل أو كاد . وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، فكذا يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة ، لا يشبه نعيم أهلها نعيما ألبتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا . ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك – أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار – فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر ، وإعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ،

وانقطاعه عن الله . بكل واد منه شعبة ؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب . فكل من أحب شيئا غير الله عُذب به ثلاث مرات فى هذه الدار . فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل . فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه ، وأنواع (من العذاب فى هذه) المعارضات فإذا سُلبه اشتد عليه عذابه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار .

وأما فى البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد . فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوان والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائم مستمر ، حتى يردّها الله إلى أجسادها ، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه ، واشتياقاً إليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه : واطرباه . ويقول الآخر : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال ، إنهم لفى عيش طيب . ويقول الآخر : مساكين أهل الدّنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها . ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن فى هذا العقد ، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوّمين .

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها ، وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بعتها بغاية الهوان . كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم ؟

﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، [الحج : ١٨] .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تعمى بصيرة القلب ، وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية .

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل [١] : إنى أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم . فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره . كأعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ، ويا سرعة العطب . ثم تقوى تلك الظلمات ، وتفيض من القلب إلى الجوارح ، فيغشى الوجه منها سواد ، بحسب قوتها وتزايدها ، فإذا كان عند الموت ظهرت فى البرزخ ، فامتلأ القبر ظلمة ، كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وإن الله منورها بصلاتى عليهم » فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد ، حتى يصير الوجه أسود مثل الحَمَمة [٢] فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها ، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب فى زمن ؟ إنما هو ساعة من حلم ! فالله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تصغر النفس وتقمعها ، وتدسيها وتحقرها حتى تكون

---

(١) المخايل : الأمارات ، واحدها مخيلة .

(٢) الحممة ، بفتحات : الفحم .

أصغر من كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٠٩] والمعنى : قد أفلح من كبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها ، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله .

وأصل التدسية : الإخفاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ ، [النحل : ٥٩] . فالعاصي يدس نفسه فى المعصية ، ويخفى مكانها ، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به ، قد انقمع عند نفسه ، وانقمع عند الله ، وانقمع عند الخلق ، فالطّاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها ، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ، ومع ذلك فهى أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى ، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو ، فما صغر النفوس مثل معصية الله ، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

فصل

ومن عقوباتها : أن العاصى دائماً فى أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه ، فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوأ حالا من أسير أسره أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة ، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ؟ وكيف يخطو خطوة واحدة ؟ .

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده . ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعُد عن الآفات ، وكلما نزل احتوشته الآفات ، وفى الحديث « الشيطان ذئب الإنسان » وكما أن الشاة التى لا حافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب ، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهى وقاية وجُنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هى وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة

أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الرّاعى كانت أقرب إلى الهلاك ، فأسلم ما تكون(١) الشاة إذا قربت من الراعى ، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم ، وهى أبعد من الرّاعى .

وأصل هذا كله : أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب ، بعضها أشد من بعض . فالغفلة تبعد القلب عن الله ، وبُعد المعصية أعظم من بُعد الغفلة ، وبُعد البدعة أعظم من بُعد المعصية ، وبُعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله .

فصل

ومن عقوباتها : سقط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده ، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه . فأسقطه من قلوب عباده ، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوأ عيش : خامل الذكر ، ساقط القدر ، زرىّ الحال ، لا حرمة له ، ولا فرح له ولا سرور ، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ؟

ومن أعظم نعم الله على العبد : أن يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خصّ أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَار ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ ﴾ ، [ص : ٤٥ ، ٤٧] أى خصصناهم بخصيصة ، وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار ، وهو لسان الصدق الذى سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : ﴿ وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِين ﴾

(١) فى نسخة « فأحمى ما تكون » أفعل تفضيل من الحماية .

[الشعراء : ٨٤] وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه : ﴿ ووَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمتِنا وَجعَلنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ورفعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ . [الشرح : ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم ، وكل من خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف ، وتكسوه أسماء الذم والصغار ، فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والمنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعابد ، والخائف ، والأوّاب ، والطيب ، والمرضى ونحوها . وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسىء ، والمفسد ، والخبيث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى ، وقاطع الرّحم ، والغادر وأمثالها ، فهذه أسماء الفسوق و ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ ﴾ [الحجرات : ٦١] الذى يوجب غضب الدَّيان ، ودخول النيران ، وعيش الخزى والهوان . وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ، ودخول الجنان ، وتوجب شرفُ المسمى بها على سائر نوع الإنسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل آمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لما باعد ، ولا مبعد لمن قرب ﴿ ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكرِمٍ ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : ١٨] .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل ، فلا تجد عاقلين أحدهما مُطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ،

ورأيه أسدّ ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى العقول والألباب كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُونِ يَا أُولِى الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [المائدة : ١٠٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّر إِلَّا أُولِى الأَلْبَابُ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ونظائر ذلك كثيرة .

وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصى مَنْ هو فى قبضته وفى داره . وهو يعلم أنه يراه ويشاهده ؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه . ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضبه عليه ولعنته له . وإبعاده من قربه . وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه روح رضاه [١] وحبه ، وقرة العين بقربه [٢] . والفوز بجواره ، والنظر إلى وجهه فى زمرة أوليائه ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة ، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية .

فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ، ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن ، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذى تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد تكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

وأما تأثيرها فى نقصان العقل المعيش فلولا الاشتراك فى هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون .

ويا عجبًا لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللّذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو فى رضاء من النعيم كله فى رضاه ، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه ، ففى رضاه قرّة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة

---

(١) فى نسخة : « وحرمانه من رضاه » .
(٢) فى نسخة : « وقرة العين إنما هى بقربه » .

الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم ، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُون فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُون كَمَا تَأْلَمُون ، وَتَرْجُون مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُون ﴾ [النساء : ١٠٤] فلا إله إلا الله ، ما أنقص عقل من باع الدرّ بالبعر ، والمسك بالرّجيع ، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً .

فصل

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأىّ فلاح ، وأىّ رجاء ، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى عنه طرْفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلى عنه وليه ؟ فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره . فأمرت ملائكتى كلهم أن يسجدوا له ، تكريماً له وتشريفاً ، فأطاعونى وأبى عدوى وعدوه . فعصى أمرى ، وخرج عن طاعتى ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دونى ، فتطيعونه فى معصيتى ، وتوالونه فى خلاف مرضاتى ، وهم أعدى عدو لكم ؟ فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه ؛ وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعى أنك موال له ، فهذا محال ، وهذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم ، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه أعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب ؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ؟ ونبّه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ وهم لكم عدو ﴾ كما نبّه على قبحها بقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته ، فما هذه الموالاة ؟ وما هذا الاستبدال ؟ بئس للظالمين بدلا .

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب ، وهو أنى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتى ، فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تمحق بركة العمر ، وبركة الرزق ، وبركة العلم ، وبركة العمل ، وبركة الطاعة .

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا ، فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه

ودنياه ممن عصى الله ، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] . وقال تعالى :﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : ١٦ ، ١٧] وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

وفى الحديث « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وإن الله جعل الرَّوْح[1] والفرح فى الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

وقد تقدم الأثر الذى ذكره أحمد فى كتاب الزهد « أنا الله ، إذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى ، وإذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد » وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه .

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل حياة البهائم خير من حياته ، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده ، والإنابة إليه ، والطمأنينة بذكره ، والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض مما فى الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض ، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحى الذى لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له ولاشيء

---

(١) الروح : الرحمة ومادة الحياة الطيبة .

له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته ؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ؟.

وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل ، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها ، فسلطانه عليهم ، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ؛ وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع ، لما فى مقارنة اسم الله من البركة ، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ، ولا معارض له ، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرّب هو الذى يبارك وحده ، والبركة كلها منه ، وكل ما نسب إليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة ؛ وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه ، فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا ما نسب إليه ، أعنى إلى ألوهيته ومحبته ورضاه ، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ، ولا خير فيه ، وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه .

وضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة ، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به ، فمن ههنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل ، وكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عُصي الله به ، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ، ليس له ، فليس [له من] عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به .

ولهذا فمن الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم.

وفى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه ، وعالم أو متعلم » .

وفى أثر آخر « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله » فهذا هو الذى فيه البركة خاصة . والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تجعل صاحبها من السِّفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العِلية ، فإن الله خلق خلقه قسمين : عِلْيَة ، وسِفلة ، وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعلين فى الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عَليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء ، كما فى مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى » فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة ، ولا يزال فى نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ، ولا يزال فى ارتفاع حتى يكون من الأعلين .

وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه ، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله ، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس .

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم ، وهو أن العبد قد ينزل نزولا بعيداً

أبعد مما بين المشرق والمغرب ، ومما بين السماء والأرض ، فلا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد ، كما في الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالًا يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » .

فأي صعود يوازي هذه المنزلة ؟ والنزول أمر لازم للإنسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته ، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته .

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته ، وقد لا يصل إليها ، وقد يرتفع عنها ، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون أضعف همة ، وقد تعود همته كما كانت .

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية ، إما صغيرة أو كبيرة ، فهذا قد يحتاج في عَودة إلى توبة نَصوح ، وإنابة صادقة .

واختلف الناس : هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها ، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أو لا يعود ، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة . وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها .

قالوا : وتقرير ذلك أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر ، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول ، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بَون عظيم .

قالوا : ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان فى سُلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذى لم ينزل يعلو عليه ولا بد .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكماً مقبولا ، فقال : مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته .

قلت : وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور ، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فإنها نفت عنه داء العُجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خدَّ ضراعته وذُله وانكساره على عَتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده (ومولاه) له ، وإلى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ (أو يتكبر) بها ، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ، ناكسَ الرّأس بين يدى ربه ، مستحيياً منه خائفاً وجلًا ، محتقراً لطاعته ، مستعظماً لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء . كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبالـ حمد ، وولَّى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلا . وأى نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذا لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه ، فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن

هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وإن صغر فإن مقابلة العظيم الذى لا شىء أعظم منه ، الكبير الذى لا شىء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل ، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها - من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرّذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض ، وملك السموات والأرض ، وإله السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته ، وإلا لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصى العباد . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفوراً ﴾ [فاطر : ٤١].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما « الحليم ، والغفور » كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ؟ .

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه ﴿ تكاد السموات يتفطرن (١) منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] .

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه ، وخالفا فيه نهيه ، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب (واحد) ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل :

نصل الذّنوب إلى الذّنوب ، ونرتجى ... دَرَج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ... ملكوته الأعلى بذنب واحد

والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع

---

(١) يتفطرن : يتشققن .

درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه ، وتمرض قلبه ، فلا يقوى دواء التوبة إعادته إلى الصحة الأولى ، فلا يعود إلى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله ، فيعود إلى درجته .

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية ، فإن كان نزوله إلى أمر يقدح فى أصل إيمانه : مثل الشكوك والرِّيب والنفاق ، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تجترئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وإنسائه ما به مصلحتُه فى ذكره ومَضرتُه فى نسيانه ، فتجترئ عليه الشياطين حتى تَؤُزّه إلى معصية الله أزًّا[1] ، وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه فى غيبته وحضوره ، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم .

قال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خُلق امرأتى ودابتى وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التى إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله ، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتستضعف عليه ، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له ، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه ، شاء أم أبى ، وذلك أن الطاعة حصن الرّب تبارك وتعالى الذى مَنْ دخله كان من الآمنين ، فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب اجترائه على معاصى الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه . وليس له شىء يردّ عنه ، فإن ذِكر الله وطاعته ، والصدقة ، وإرشاد الجاهل ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ،

---

(١) يؤزه أزاً : تدفعه دفعاً شديداً .

وقايةٌ تردُّ عن العبد ، بمنزلة القوة التي تردُّ المرض وتقاومه فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك ، فلا بد للعبد من شيء يردُّ عنه ، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع ، ويكون الحكم للغالب كما تقدم ، وكلما قوى جانب الحسنات كان الرّد أقوى كما تقدم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، والإيمان قول وعمل ، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع ، والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تَخُون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه ، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته ، فاستعملها فيما ينفعه وكفّها عمّا يضرّه ، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم ، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من آثر هذه على هذه ، كما أن أسفههم من عكس الأمر ، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم ، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع ، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم ، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين ، فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قِرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه ، فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه ، فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض . فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً ، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقْدم بقلبه ، والجوارح تبع للقلب ، فإذا لم يكن عند ملكها قوة بها فما الظن بها ؟ .

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف . أعني النفس

المطمئنة ، وإن كانت الأَمّارة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت تلك : فيبقى الحكم والتصرف للأَمّارة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجى معه حياة ، فهذا ميت فى الدنيا . ميت فى البرزخ ، غير حى فى الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط .

والمقصود : أن العبد إذا وقع فى شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شىء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه لذكره ، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر ، ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور ، بل إن ذَكَر أو دَعا ذَكَر بقلب لاه ساه غافل ، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصى ، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وُسعهم فى الدفع عنه بغير قوة .

هذا ، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمرّ ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى ، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك ، حتى قيل لبعضهم : قل « لَا إِلٰهَ إِلَّا الله » فقال : آه آه ، لا أستطيع أن أقولها . وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » . فقال : شاه ، رُخ ، غلبتك[1] ثم قضى ، وقيل لآخر : قل « لا إلٰه إلا الله » فقال :

يا رُبَّ قائلة يوماً ، وقد تعبت : كيف الطريق إلى حمام منجاب ؟

ثم قضى . وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فجعل يهذى بالغناء ، ويقول :

---

(١) شاه ، ورخ : اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج ، لأنه كان فى حياته مفتوناً بلعبه .

تاتنا تنتنا ، حتى قضى . وقيل لآخر ذلك ، فقال : ما ينفعنى ما تقول ، ولم أدَعْ معصية إلا ركبتها ، ثم قضى ولم يقلها . وقيل لآخر ذلك ، فقال : وما يغنى عنى وما أعرف أنى صليت لله صلاة ؟ ولم يقلها . وقيل لاخر ذلك ، فقال : هو كافر بما تقول ، وقضى . وقيل لآخر ذلك ، فقال : كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها ، وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته ، فجعل يقول : لله فلس ، لله ، فلس لله ، حتى قضى . وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده ، وجعلوا يلقنونه « لا إله إلا الله » وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشترى جيد ، هذه كذا ، حتى قضى .

وسبحان الله ! كم شاهد الناس من هذا عبراً ؟ والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، فإذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوّته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يريده من معاصى الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى ، وعطل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ؛ فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع ؟ وجمع الشيطان له كل قوّته وهمّته ، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته (١) فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو فى تلك الحال ، فمن ترى يَسلم على ذلك ؟ فهناك ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِى الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يشَاء ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطا ؟ فبعيد من قلبه من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشتغلة بمعصيته ، أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

---

(١) فى نسخة : لينال منه غرضه .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ، إنَّ لكم لمَا تحكمون ؟ سَلهم أيهم بذلك زعيم ؟ ﴾ [القلم : ٣٩ ، ٤٠] كما قيل :

يا آمنا مع قبح الفعل منه أهـل	أتاك توقيع أمن أنت تملكه ؟
جمعت شيئين : أمناً ، واتباع هوى	هذا ، وإحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا ، وذلك درب لست تسلكه
فرّطت فى الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا ، وأعجب شىء فيك زهدك فى	دار البقاء بعيش سوف تتركه
مَن السفيه إذاً بالله ؟ أنت ، أم الـ	ـمغبون فى البيع غبناً سوف تدركه ؟

فصل

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب ، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد ، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد ، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه فى نفسه وفى غيره بحسب ضعف بصيرته وقوّته .

فإن الكمال الإنسانى مداره على أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين ، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ [ص : ٤٥] فالأيدى : القوى فى تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر فى الدين ، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه ، وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام ، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى .

القسم الثانى : عكس هؤلاء ، من لا بصيرة (له) فى الدين ، ولا قوة على

تنفيذ الحق ، وهم أكثر هذا الخلق ، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح ، وسقم القلوب ، يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار .

القسم الثالث : من له بصيرة بالحق ومعرفة به ، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ، ولا الدعوة إليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف ، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه .

القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة ، لكنه ضعيف البصيرة فى الدين ، يكاد يميز بين أولياء الرّحمن وأولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شَحمة ، يحسب الوَرَم شحماً ، والدواء النافع سُما .

وليس فى هؤلاء من يصلح للإمامة فى الدين ، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنا لمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون ﴾ [السجدة : ٢٤] فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة فى الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين . وأقسم بالعصر – الذى هو زمن سعى الخاسرين والرابحين – على أن من عداهم فهو من الخاسرين ، فقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْر ، إنَّ الإنْسانَ لَفِى خُسْر ، إلَّا الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه ، حتى يوصى بعضهم بعضاً به ، ويرشده إليه ، ويخصه عليه .

وإذا كان مَن عدا هؤلاء خاسراً ، فمعلوم أن المعاصى والذّنوب تعمى بصيره القلب فلا يدرك الحق كما ينبغى ، وتضعف قوّته وعزيمته فلا يصير عليه ، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره ، فيدرك سيره

فيدرك الباطل حقاً والحق باطلا ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً . فينتكس في سيره ، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة ، التي رضيت بالحياة الدنيا ، واطمأنت لها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقائه ، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها ، والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنوِّر القلب وتجلوه وتصقله ، وتقويه وتثبته . حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نوراً ، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب . فالشيطان يَفْرَق من هذا القلب أشدَّ من فَرَق الذئب من الأسد ، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً ، فيجتمع عليه الشياطين ، فيقول بعضهم لبعض : ما شأنه ؟ فتقال : أصابه إنسي ، وبه نظرة من الإنس :

فيا نظـرة من قلب حُرٍّ مُنَوَّرٍ   يكاد لها الشيطان بالنور يُحرق

أفيستوى هذا القلب وقلبٌ مظلمة أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه . قد اتخذه الشيطان وطنه وأعدَّه مسكنه ، إذا تصبَّح بطلعته حيَّاه ، وقال : فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أُخراه ؟ :

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها   فأنت قرين لي بكل مـكان

فإن كنت في دار الشقاء ، فإنني   وأنت جميعاً في شقاً وهوان

قال الله تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ[1] عن ذكر الرّحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال : ياليت بيني وبينك بُعد المشرقين ، فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ [الزخرف : ٣٦ : ٣٩] .

---

(١) يعش - بفتح الياء وسكون العين وضم الشين - أي يعمى فلا يبصر ، والمراد عمى بصيرة .

فأخبر سبحانه أنه من عشا عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعمى عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه ، قيض الله له شيطاناً ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى السير ، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير .

رضيعاً لبان ثدى أم ، تقاسما بأسحم داج عوض ، لا يتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : يا ليت بينى وبينك بُعد المشرقيْن ، فبئس القرين كنت لى فى الدنيا ، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبئس القرين أنت لى اليوم .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبته حصل (له) بالتأسى نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ، ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُم الْيَوْم إِذْ ظَلَمْتم ، أَنَّكُم فِى الْعَذَاب مُشْتَرِكُون ﴾ .

فصل

ومن عقوباتها : أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه ، وجيش يقويه به على حربه ، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، ولا ينام عنه . ولا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه يبذل جهده فى معاداته فى كل حال ، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه ، ويستعين عليه ببنى جنسه من شياطين الجن ، وغيرهم من شياطين الإنس : فقد نصب له الحبائل ، وبغى له الغوائل ، ومد حوله الأشراك ، ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم ، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار ، ونصيبه الرّحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى علىّ وعليكم من الخزى واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، إذ فاتتنا شركة صالحيهم فى الجنة ، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا ، وأمرنا أن نأخذ له أهبته ، ونعد له عدته .

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بُلوا بهذا العدو وأنه قد سُلط عليهم أمَدَّهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمدّ عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر ، التى هى بالإضافة إلى الآخرة كنَفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيَقتلون ويُقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه ، وهى التوراة والإنجيل والقرآن ، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التى من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشترى من هو ؟ وإلى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، وإلى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ؟ وأى تجارة أربح منه ؟ .

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذٰلِكُمْ خيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُون ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونها ، نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين ﴾ [الصَّف : ١٠ - ١٣] . ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب أنواع المخلوقات إليه ، إلا لأن الجهاد أحب شىء إليه ، وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم إليه وسيلة ، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته ، وهو القلب الذى هو محل معرفته ، ومحبته ، وعبوديته ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، فولاه أمر هذا الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه : ﴿ له مُعقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ [الرعد : ١١] يعقب بعضهم بعضاً ، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر ، يثبتونه ، ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ، ويقولون : إنما هو صبر ساعة ، وقد استرحت راحة الأبد .

ثمّ أمده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه . فأرسل إليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل إليه كتابه ، فازداد قوة إلى قوته ، ومدداً إلى مدده ، وعدة إلى عدته ، وأيده مع ذٰلك بالعقل وزيراً له ومدبراً . وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالإيمان مثبتًا له ومؤيداً وناصراً ، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر ، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر أمر جيشه ، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة .

ثم أمدَّ سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين

طليعته ، والأُذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزبى وحزب الله هم المفلحون ، قال الله تعالى : ﴿ أولٰئِك حِزْبُ الله ، أَلَا إِنَّ حزبَ الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة : ٢٢] وهؤلاء جندى ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ ، [الصَّافات : ١٧٣] .

وعلم سبحانه عباده كيفية هذا الحرب والجهاد . فجمعها لهم فى أربع كلمات فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأُمور الأَربعة ، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو ، وهى مقاومته ومنازلته ، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة ، وهى لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو ، ولزوم ثغر العين والأُذن واللِّسان والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه .

فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان ، وقد أَخلُّوا المكان الذى أُمروا بلزومه يوم أُحد ، فدخل منه العدو ، فكان ما كان .

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله تعالى ، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر .

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تدال مرة ويدال عليك مرة أخرى ؟ أقبل مَلك الكفَرة وعساكره ، فوجد القلب فى

حصنه جالساً على كرسي مملكته ، أمره نافذ في أعوانه ، وجنده قد حفوا به : يقاتلون عنه ويدافعون عن حَوزته ، فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخامرة[١] بعض أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، فقيل له : هي النفس ، فقال لأعوانه : ادخلوا عليها من مرادها ، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها ، فعِدوها به ، ومنوها إياه ، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها ، فإذا اطمأنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ، ثم جروها بها إليكم ، فإذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل ، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير ، أو جريح مثخن بالجراحات ، ولا تُخلوا هذه الثغور ، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها ، وإن غُلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل إلى القلب ، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئاً ، فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً ، بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً ، فإن استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة ، فإنه أقرب إليه ، وأعلق بنفسه ، وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين ، فإن منه تنالون بغيتكم ، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر ، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة ، ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته ، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر ، وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهونوا عليه أمره ، وقولوا له : مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق ، والتأمل لبديع صنيعه ، وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك

(١) المخامرة : الغش والمخادعة ممن تظنه معك .

العينين سُدى ، وما خلق هذه الصورة بيحجبها عن النظر . وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له : هذه (الصورة) مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه ، فادعوه إلى القول بالاتحاد . فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك ، فإنه يصير به من إخوان النصارى ، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة ، والعبادة والزهد فى الدنيا ، واصطادوا عليه (وبه الجهال ، فهذا من أكبر خلفائى وأكبر جندى ، بل أنا من جنده وأعوانه .

فصل

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر . فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل ، فإنه خفيف على النفس ، تستحليه وتستحسنه ، تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس مزجًا ، وألقوا الكلمة ، فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزُبوه[1] بأخواتها ، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره ، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء ، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحُولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به ، إما بإدخال ضده عليه ، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه ، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه ، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، وإما بإرخاصة على النفوس وأن الاشتغال ينبغى أن يكون بما هو أغلى عند الناس ، وأعز عليهم ، وأغرب عندهم ، وزبونه القائلون له أكثر ، وأما الحق فهو مهجور ، وقائله معرض نفسه للعداوة ، والرّابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك ، فتدخلون الباطل عليه فى كل قالب يقبله ويخف عليه ، وتخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه .

---

(١) فى نسخة : فامزجوه بأخواتها .

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس ، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول ، وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وإلقاء الفتن بين الناس ، ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التجسيم والتشبيه والتكييف ، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله : « من يسألني فأعطيه » تحركًا وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم به من صفاته أعراضاً ، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأمور ، ويوهمون الأغمار[1] وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] فسماه زخرفاً ، وهو باطل . لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ، ويلقيه إلى سمع المغرور ، فيغتر به .

والمقصود : أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه ، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه ، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه

فصل

ثمّ يقول : قوموا على ثغر اللِّسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك ، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه ، وامنعوه أن يجرى عليه شيء مما

---

(١) الأغمار ، جمع غمر : السريع الانخداع ، ومن لا تجربة له .

ينفعه ، من ذكر الله تعالى ، واستغفاره ، وتلاوة كتابه ، ونصيحة عباده ، والتكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم فى هذا الثغر أمران عظيمان ، لا تبالون بأيهما ظفرتم :

أحدهما : التكلم بالباطل ، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم .

والثانى : السكوت عن الحق ، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس ، كما أن الأول أخ ناطق ، وربما كان الأخ الثانى أنفع أخويكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح « المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن الباطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوّفوه من التكلم بالحق بكل طريق .

واعلموا يابنى أن ثغر اللسان هو الذى أهلك منه بنى آدم وأكبّهم منه على مناخرهم فى النار فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ؟ .

وأوصيكم بوصية فاحفظوها : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع ، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجيب منها ، ويطلب من أخيه إعادتها ، وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مَرْصد . أما سمعتم قسَمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِين ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] أو ما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرُقه كلها ، فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له بطريق غيره ، حتى أصيب منه حاجتى أو بعضها ؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : « إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها ، وقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتُسلم وتذر

دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم ، فقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ فخالفه وهاجر ، فقعد له بطريق الجهاد ، فقال : أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة ؟ » . فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير ، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة ، وقولوا له فى نفسه : أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل ، وتصير بمنزلته أنت سواء ؟ أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه ، فقال : هى أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج ، فقولوا : طريقه مخوفة مشقة ، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها ، ثمّ اقعدوا لهم على طرق المعاصى فحسنوها فى أعين بنى آدم ، وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء ، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم ، فنعم العون هن لكم .

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين ، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشى فيه .

واعلموا أن أكثر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمّارة : فأعينوها واستعينوا بها ، وأمدوها واستمدوا منها ، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها ، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة ، وانطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه ، واعزلوه عن مملكته ، وولوا مكانه النفس الأمارة ، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبتة ، مع أنها لا تخالفكم فى شىء تشيرون به عليها ، بل إذا أشرتم عليها بشىء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته ، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها ، وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد ، وقولوا له : ذُقْ طعم هذا الوصال ، والتمتع بهذه

العروس ، كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها ، فليست بيوم وتنقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت ، وقواك تضعف عن حرب دائم .

واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

أحدهما : جند الغفلة ، فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق ، فليس لكم شىء أبلغ فى تحصيل غرضكم من ذلك ، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن إغوائه .

الثانى : جند الشهوات ، فزينوها فى قلوبهم ، وحسنوها فى أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم من بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات ، وعلى الشهوات بالغفلة واقرنوا بين الغافلين ، ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد خمسة ، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم - من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه ، ولم تقدروا على تفريقهم - فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم

وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها ، وأدخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته ، فساعدوه عليها ، وكونوا أعواناً له على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ، ويصابروكم ، ويرابطوا عليكم الثغور ، فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب ، فلا تصطادون بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ، ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب ، فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه ، ولا تعطوا ثغرها

فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحرى أن لا يملك نفسه عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وامزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب ، وإلى الغضب من طريق الشهوة .

واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما القيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم ، وبه قتل أحد ابنى آدم أخاه .

واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأُ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، فإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة ، وقد أمرهم نبيهم بذلك ، فقال : « إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم (من) احمرار عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسّ بذلك فليتوضأْ » . وقال لهم : « إنما تطفأُ النار بالماء » . وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة ، فحُولوا بينهم وبين ذلك ، وأنسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها : الغفلة ، واتباع الهوى . وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم : ذكر الله ، ومخالفة الهوى . فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله ، ولا تدنوا منه .

والمقصود أن الذنوب والمعاصى سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ، ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، ويكون معهم على نفسه ، وهذا غاية الجهل .

ما يبلغ الأعداءُ من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب أن العبد يسعى بجهده فى هوان نفسه ، وهو يزعم أنه لها مكرم ، ويجتهد فى حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها ، وهو يزعم أنه يسعى فى حظها ، ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدسيتها ، وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها .

وكان بعض السلف يقول فى خطبته : ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومُذلٍّ لنفسه وهو يزعم أنه لها مُعزٌّ ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبِّر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحفظها[1]؟ وكفى بالمرء جهلا أن يكون مع عدو على نفسه ، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه ، والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه ، وإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها .

فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ وإذا نسى نفسه فأىُّ شىء يذكر ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟ .

قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ﴾ [الحشر : ١٩] فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم ، كما قال الله تعالى ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ [التوبة : ٦٧] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين :

إحداهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه .

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به ، ينسيه ذلك جميعه ، فلا يُخطره بباله ، ولا يجعله على ذكره ، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره .

وأيضًا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ، فلا يخطر بباله إزالتها .

---

(١) فى نسخة : لحقها .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ، فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعى فى إزالة عللها وأمراضها التى تؤول به إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة .

فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ، ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية فى[1] النعيم المقيم ؟

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذى عقده لنفسه فى هذه الدار ، والتجارة التى اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر فى هذه الدنيا لآخرته .

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ، ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها ، فأذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وكان سعيهم لتحصيلها ، فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلا بعاجل ، ونسيئة بنقد ، وغائباً بناجز ، وقالوا : هذا هو الحزم ، ويقول أحدهم :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

فكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار أخرى غير هذه ؟ وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان ، وقوة داعى الشهوة ، ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق فى هذه التجارة الخاسرة التى قال الله سبحانه فى أهلها ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم

---

(١) فى نسخة : من النعيم المقيم .

العذاب ، ولا هم ينصرون ﴾ ، [البقرة : ٨٦] . وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ [البقرة : ١٦] . فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ، فتتقطع عليها النفوس حسرات .

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بباق ، وخسيساً بنفيس ، وحقيراً بعظيم وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها ، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها ؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم ، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ [يونس : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّانَ مرساها ؟ فيمَ أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر مَن يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيَّةً أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٢ - ٤٦] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ قال : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادِّين ، قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ [المؤمنون ١١٢ - ١١٤] . وقال تعالى : ﴿ يوم يُنفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً يتخافتون بينهم ، إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ؛ إذ يقول أمثلُهُم طريقة : إن لبثتم إلا يوماً ﴾ [طه : ١٠٢ - ١٠٤] فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة ، فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وأن لهم داراً غير هذه الدار ، هي دار الحيوان ودار البقاء - رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه ، وكل أحد في هذه الدنيا بائع غير مشتر متجر . وكل الناس يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها ﴿ إن الله

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيَقتلون ويُقتلون ، وعْداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوْفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ١١١] .

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ، فتاجروا أيها المفلسون ، ويا من لا يقدر على هذا الثمن هاهنا ثمن آخر ، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين ﴾ [التوبة : ١١٢] . ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [الصّف : ١٠، ١١] .

والمقصود : أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة ، وتشغله بالتجارة الخاسرة ، وكفى بذلك عقوبة ، والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة ، وتقطع النعم الواصلة ، فتزيل الحاصل ، وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استُجلِب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة : سبباً يجلبه ، وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته ، وآفاتها المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها .

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره ، وسماعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه ، وهو مقيم على معصية الله ، كأنه

مستثنى من هذه الجملة (أو) مخصوص من هذا العموم ، وكأن هذا أمر جار على النا س لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه .

فأى جهل أبلغ من هذا ؟ وأى ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلى الكبير .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنفع الخلق له ، وأنصحهم له ، ومن سعادته فى قربه منه : وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه ، وأغش الخلق له ، وأعظمهم ضرراً له : وهو الشيطان ، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة .

وفى بعض الآثار « إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه » . فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك ، وأفحش منه ؟ .

وقال بعض السلف : إذا ركب الذكرُ الذكرَ عجت الأرض إلى الله ، وهربت الملائكة إلى ربها ، وشكت إليه عظيم ما رأت .

وقال بعض السلف : إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان ، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان .

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له ، فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند بعثه ، كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ [فصلت : ٣٠، ٣١] . وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم ، فثبته وعلمه ، وقوى جنانه ، وأيده . قال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى

معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ﴾ [الأنفال : ١٢] فيقول له الملك عند الموت : « لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذى يسرك » ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه فى الحياة الدنيا ، وعند الموت ، وفى القبر عند المسألة .

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه فى يقظته ومنامه ، وحياته وعند موته ، وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته ، وصاحبه فى خلوته ، ومحدثه فى سره ، يحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ويعينه عليه ، ويعِدُه بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ؛ كما جاء فى الأثر الذى يُروَى مرفوعاً « إن للملك بقلب ابن آدم لمّة [1] وللشيطان لمة ، فلمّة الملك إبعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه ، وألقى عليه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك ، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان .

وفى الحديث « إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقى بالقلب الحق ، ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقى الباطل فى القلب ، ويجريه على اللســان .

فمن عقوبة المعاصى : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومجاورته وموالاته ، وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه ، كما

(١) اللمة بفتح اللام : من ألم به نزل به نزولا خفيفاً ، ومعناه الخطرة فى القلب .

« اختصم بين يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر ، وهو ساكت ، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس » . وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن الملك على دعائه ، وقال « لك بمثله » وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه ، وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حملة العرش ومَن حوله ، وإذا نام على وضوء بات فى شعاره [1] ملَك ، فملَكُ المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ، ويعلمه ويثبته ويشجعه ، فلا يليق به أن يسىء جواره ويبالغ فى أذاه وطرده عنه وإبعاده ، فإنه ضيفه وجاره ، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته ، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف ، وخير الجيران وأبرهم ؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصى والظلم والفواحش دعا عليه ربه ، وقال : « لا جزاك الله خيراً » كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان .

قال بعض الصحابة رضى الله عنهم « إن معكم من لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم وأكرموهم » .

ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر ، ولا يجله ولا يوقره ، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم ، وأجلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن

---

(١) الشعار : ما يلى الجسم من الثياب .

يفجر ويعصى بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟ والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته ، فإن الذنوب هى أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته ، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية التى متى غلبت عليه أفسدته ، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها ، وهى عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى : اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره .

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فإنها تستجلب المواد المؤذية ، وتوجب التخليط المضاد للحمية . وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض ، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمى لها ، كيف تكون صحته وبقاؤه ، ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية حصّنته ... مخافة من ألم طارى

وكان أولى بك أن تحتمى ... من المعاصى خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر ، واستعمل الحمية باجتناب النواهى واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح ، لم يدع للخير مطلباً ، ولا من الشر مهرباً ، والله المستعان .

فصل

فإن لم تَرُعك[1] هذه العقوبات ، ولم تجد لها تأثيراً فى قلبك ، فأحضره

(١) أى : لم تخفك ، من الروع .

العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله عن الجرائم ، كما قطع اليد فى سرقة ثلاث دراهم ، وقطع اليد والرجل فى قطع الطريق على معصوم المال والنفس ، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن ، أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة وبنفى سنة عن وطنه وبلده إلى الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم محرم منه ، أو ترك الصلاة المفروضة ، أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطىء ذكراً مثله ، وقتل المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع عنه طبيعياً وليس فى الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير ، ولم يرتب عليه حداً . كأكل الرجيع ، وشرب الدم ، وأكل الميتة ، وما كان فى الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته ، وبقدر داع الطبع إليه .

ولهذا لما كان داعى الطباع إلى الزنى من أقوى الدواعى كانت عقوبته العظمى من أشنع القِتْلات وأعظمها ، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب ، ولما كانت (جريمة) اللواط فيها الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعى السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد .

وتأمل حكمته فى إفساد العضو الذى باشر العبد به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذى جنى به ، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها ، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد . .

فإن قيل : فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية ؟ !

قيل ، لوجوه :

أحدها : أن مفسده ذلك تزيد على مفسدة الجناية ، إذ فيه قطع النسل ، وتعريضه للهلاك .

الثانى : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة ، بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها ، بخلاف الفرج .

الرابع : أن لذة الزنى عمت جميع البدن ، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببَضْعة منه [1] .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل ، وأقومها بالمصلحة .

والمقصود : أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية ، أو يجمعهما الله للعبد ، وقد يرفعهما عمن تاب وأحسن .

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية ، وقدرية ، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ، ولم يكف فى زوال دائه [2] وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية ، وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

---

(١) البضعة - بفتح الباء - هى القطعة من اللحم ، أى بجزء منه ، والمراد الفرج .

(٢) فى نسخة : ذاته .

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة ، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا فى ترك إنكاره أوشك أن يُعمّم الله بعقابه .

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرّعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها ، وجعلها الله سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد ، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه ، وهو الزنى واللواط ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد (الأنساب ، ونوع) الإنسان .

قال الإمام أحمد « لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى » واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : « يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك » . فأنزل الله تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ﴾ الآية [الفرقان : ٦٨] .

والنبى صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل ، فإنه سأله عن أعظم الذنب ، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك : أن يجعل العبد لله نداً

وأعظم أنواع القتل : أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه .

وأعظم أنواع الزنى : أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف من انتهكه من الحق ، فالزنى بالمرأة التى لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه : فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير

ذات البعل ، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى ، وذلك من أعظم البوائق[1] .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقَه » ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائباً فى طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم ، حتى إن الزانى بامرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال : خذ من حسناته ما شئت ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « فما ظنكم ؟ » أى ما ظنكم أنه يترك له من الحسنات قد حكِّم فى أن يأخذ منها ما شاء ؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه ؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً ، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظَّم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الإثم والعقوبة ، والله المستعان .

فصل

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذى يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، لأنه يأخذ الأموال فى اختفاء ، وينقب الدور ، ويتسوّر من غير الأبواب ، فهو كالسنّور والحية التى تدخل عليك من حيث

(١) أى الغوائل والشرور ، واحدها بائقة ، وهى المهلكة .

لا تعلم ، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلى القتل ، ولا تندفع بالجلد ، فأحسن ما دفعتْ به مفسدته إبانة العضو[1] الذى يتسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول ، وتمزيق الأعراض بالقذف .

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع : العتق ، وهو أعلاها ، والإطعام ، والصيام .

ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام :

قسماً فيه الحد ، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء الحد.

وقسماً لم يترتب عليه حداً ، فشرع فيه الكفارة ، كالوَطْء فى نهار رمضان ، والوطء فى الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطإ ، والحنث فى اليمين ، وغير ذلك .

وقسماً لم يترتب عليه حداً ولا كفارة ، وهو نوعان :

أحدهما : ما كان الوازع عنه طبيعياً ، كأكل العَذرة ، وشرب البول والدم .

والثانى : ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد ، كالنظر والقُبلة واللمس والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك .

وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ، ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم ، كالوطء فى الإحرام والصيام ، وطَرْدُه : الوطء فى الحيض والنفس ، بخلاف الوطء فى الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لا يصح ، فإنه لا يباح فى وقت دون وقت ، فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثانى : ما عقد الله من نذر أو بالله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد

---

(١) إبانة العضو : قطعه وفصله من سائر الأعضاء .

حله . فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحِلّة . وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث ، كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً ، وإنما الكفارة حلٌّ لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فات ، ككفارة قتل الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد خطأ ، فإن ذلك من باب الجوابر ، والنوع الأول من باب الزواجر ، والنوع الأوسط من باب التحلة لما منعه العقد .

ولا يجتمع الحد والتعزير فى معصية ، بل إن كان فيها حد اكتُفِى به ، وإلا اكتفى بالتعزير ، ولا يجتمع الحد والكفارة فى معصية ، بل كان معصية فيها حد فلا كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة فى المعصية التى لا حد فيها ؟ فيه وجهان ، وهذا كالوطء فى الإحرام والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة ، فقيل : يجب التعزير ، لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية ، وقيل : لا تعزير فى ذلك ، اكتفاء بالكفارة ، لأنها جابرة وماحية .

فصل

وأما العقوبات القدرية فهى نوعان : نوع على القلوب والنفوس ، ونوع على الأبدان والأموال .

والتى على القلوب نوعان ، أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب ، والثانى : قطع المواد التى بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها ، وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهى أصل عقوبة الأبدان .

وهذه العقوبة تقوى وتتزايد ، حتى تسرى من القلب إلى البدن ، كما تسرى ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها ،

فظهرت القلب حينئذ وصارت علانية ظاهرة ، وهى المسماة بعذاب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .

فصل

والتى على الأبدان أيضاً نوعان : نوع فى الدنيا ، ونوع فى الاخرة ، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه فى الشدة والخفة ، فليس فى الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله ، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ منهما فى خطبته بقوله « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » وسيئات الأعمال : من شرور النفس ، فعاد كله إلى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .

وقد اختلف فى معنى قوله « ومن سيئات أعمالنا » هل معناه السئ من أعمالنا ، فيكون من باب إضافة الفرع إلى جنسه ؟ أو تكون « من » بيانية ، وقيل : معناه من عقوباتها التى تسوء ، فيكون التقرير : ومن عقوبات أعمالنا التى تسوؤنا . ويرجح هذا القول : أن الاستعادة تكون قد تضمنت جميع الشر فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهى تستلزم العقوبات السيئة فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه ، إذ هو أصله ، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه ، فهو السيئات التى تسوء العبد عن عمله ، من العقوبات والآلام . فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه . ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿ وقِهِمُ السيئات ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحِمْتَه ﴾ [غافر : ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السىء وقاهم جزاء

السيء ، وإن كان قوله ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ أظهر فى عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد بالسيئة التى يسألوا وقايتها : الأعمال السيئة ، ويكون الذى سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم . ولا يرد على هذا قوله (يومئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم ، وهى سيئات فى أنفسها .

قيل : وقاية السيئات نوعان : أحدهما : وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه ، والثانى : وقاية جزائها بالمغفرة ، فلا يعاقب عليها . فتضمنت الآية سؤال الأمرين ، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية .

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه ، وسعة رحمته ، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة ، واستيلاء عدوهم وأنفسهم ، وهواهم وطباعهم ، وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم ، إذ أنشأهم من الأرض ، وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته ، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شىء ، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله ، وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته ، فتابوا مما يكره ، واتبعوا السبيل التى يحبها ، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم والمؤمنين — من

أصولهم وفروعهم وأزواجهم – جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد ، فإنه وعدهم بها بأسباب : من جملتها : دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التى منها أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بهـا .

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك . فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم ، وبهاتين الصفتين يقضى سبحانه وتعالى ما شاء ويأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر .

والمقصود : أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية ، وعقوبات قدرية . وهى إما فى القلب : وإما فى البدن ، وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم حشر الأجساد ، فالذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة : لأنه بمنزلة السكران والمخدَّر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار ، والكسر على الانكسار ، والاغتراق على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض على الأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة الذنب ، وقد تتأخر عنه ، إما يسيراً وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه ، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ، ولا يدرى أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً ، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذَّة بالقُذَّة[1] فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك ، هذا

---

(١) القذة : واحدة ريش السهم ، أى كما تقدر كل واحدة منها على قدر صاحبتها ، يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل اثره ، فكيف بالذنب على كل يوم وكل ساعة ؟ والله المستعان

فصل

فاستحضِر بعض العقوبات التى رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ، وجوِّز وصول بعضها إليك ، واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق لك منها طرفاً يكفى العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها : الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الابصار ، والإقفال على القلوب وجعل الأكنة[1] عليها والرين عليها والطبع ، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء الإنسان نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد فى السماء ، وصرف القلوب عن الحق ، وزيادتها مرضاً على مرضها ، وإركاسها وإنكاسها ، بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه قال « القلوب أربعة : قلب أجْرَدٌ فيه سراج يُزهر[2] ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف[3] ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فذلك قلب المنافق ، وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما » .

ومنها التثبيط عن الطاعة ، والإقعاد عنها .

ومنها : جعل القلب أصمٌ لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره ، كالنسبة بين أذن

---

(١) الأكنة : الأغطية .

(٢) أى ليس فيه غل ولا غش من أثر الجهل والغفلة ، فهو على أصل الفطرة السليمة ونور الإيمان فيــه مشرق .

(٣) أى مغطى بالأهواء والجهل والتقليد والشهوات ، قد أغلق عليه ؛ فلا يستمع لداعى الحق ، ولا يستيقظ بآيات الله ومواعظه .

الأصم والأصوات ، وعين الأعمى والألوان ، ولسان الأخرس والكلام ، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة ، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] . وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر ، كيف وقد قال تعالى ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ [النور : ٦١] . وقال ﴿ عبَس وتولَّىٰ ، أن جاءه الأعمىٰ ﴾ [عبس : ١ - ٢] . وإنما المراد أن العمى التام فى الحقيقة عمى القلب ، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى ، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصُّرَعة (١) ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » . وقوله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين بالطوّاف الذى تردُّه اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه » ونظائره كثيرة .

والمقصود : أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها : الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه : فيخسف به إلى أسفل السافلين ، وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به : أنه لا يزال جوّالا حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوّالًا حول العرش .

ومنها : البر والخير ومعالى الأعمال والاقوال والأخلاق .

قال بعض السلف « إن هذه القلوب جوّالة ، فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول الحُشّ » .

ومنها : مسخ القلب ، فيمسخ كما تمسخ الصورة ، فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يمسخ على

(١) بضم الصاد وفتح الراء : المبالغ فى قوة المصارعة الذى لا يغلب .

قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به . ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك ، وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ [الأنعام : ٣٨] قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية . ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير : ومنهم من يتطوّس فى ثيابه كما يتطوس الطاوس ، ومنهم من يكون بليداً كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الثعالب التى تروغ كروغانها ، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغى بالحمر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشبهة باطنا حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً ، يراه المتفرسون ، وتظهر فى الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ، ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة ، فتنقلب له الصورة بإذن الله ، وهو المسخ التام ، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان ، كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير .

فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ؟ وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ؟ ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه ؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ، ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها : مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزئ ، وإزاغته القلبَ الزائغ عن الحق .

ومنها : نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً ، والحق باطلا ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ويفسد ويرى أنه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى ، وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه ،

وهو يزعم أنه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب .

ومنها : حجاب القلب عن الرب فى الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة .
كما قال الله تعالى ﴿ كلا بل رَان على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين : ١٥ - ١٦] فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم ، فتصل القلوب إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقرّ به عينا وتطيب به نفساً ، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم ، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها : المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة ، قال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [طه : ١٢٤] . وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأصناف النعم ، ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه فى عسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقرّ العين ، ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله

قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧] فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين ، فهم أحياء فى الدارين

ونظير هذا قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ [النحل : ٣٠] ونظيرها قوله تعالى ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويُؤْتِ كلَّ ذى فضل فضله ﴾ [هود : ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، وهو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

وقال آخر : إن فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة ، فمن دخلها دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذه الجنة بقوله « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلَق الذكر » وقال « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة »

ولا تظن أن قوله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ﴾ ، [الانفطار : ١٣ ، ١٤] مختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة ، وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة ، وأىّ لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب ، وسلامة الصدر ، ومعرفة الرّب تبارك وتعالى ، والعمل على موافقته ؟ وهل العيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [الصافّات : ٨٣ - ٨٤] وقال حاكياً عنه أنه قال ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم ﴾ [الشعراء : ٨٨ - ٨٩] والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغلّ والحقد والحسد والشح والكبْر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله ، فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ ، وفى جنة يوم المعاد .

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والإخلاص .

وهذه الخمسة حجب عن الله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لا تنحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد ، بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة ، وليس شىء أنفع له منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت ، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد ، وقد لا يعلمها ، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد

يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه ، وما يقدر عليه قد لا تريده ، كسلا وتهاوناً ، أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله ، وما يفعله قد يقوم فيه بشرط الإخلاص وقد لا يقوم . وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار فى الخلق ، فمستقل ومستكثر ، وليس فى طباع العبد الهداية إلى ذلك ، بل متى وُكِلَ إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله ، وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم فى قضائه وقدره ، ونهيه وأمره ، فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعله الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته [1] لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيما يوصلهم إليه ، فهو على صراط مستقيم .

ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيما دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلا ، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيما يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف عنه فى الدنيا ، وأقام عليه من أقامه عليه فى الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فى ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه ، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه ، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه ، كما أطفأه من قلوبهم فى الدنيا ، وأقام أعمال

---

(١) فى نسخة : وحكمه .

العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحَسَكا[1] تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم إليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه فى الدنيا ، وحرم من الشرب منه هاك من حرم من الشرب من شرعه ودينه هاهنا .

فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه فى الدارين تعلم حينئذ (علماً) يقيناً لا شك فيه : أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها وأنموذجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح وضدهما ، وبالله التوفيق .

فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة .

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة فى درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها فى الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها .

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلا وجيزاً جامعاً فنقول :

أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوى الجن والإنس ، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن فى القلوب ، وباعتبار متعلقة إلى حق الله ، وحق خلقه ، وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه ، لكن سمى حقاً للخلق ، لأنه يجب بمطالبتهم ، ويسقط بإسقاطهم .

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .

---

(١) الكلاليب : جمع كلاب أو كلوب ، وهو حديدة معقوفة الرأس يجر بها . والحسك - بفتح الحاء والسين المهملتين - الشوك .

فالذنوب الملكية : أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية ، كالعظمة ، والكبرياء ، والجبروت ، والقهر ، والعلو ، واستعباد الخلق ، ونحو ذلك ، ويدخل فى هذا الشرك بالله تعالى ، وهو نوعان : شرك به فى أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه ، وشرك به فى معاملته ، وهذا الثانى قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم فى خلقه وأمره ، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه فى ربوبيته وملكه ، وجعل له نداً ، وهذا أعظم الذنوب عند الله ، ولا ينفع معه عمل .

فصل

وأما الشيطانية : فالتشبه بالشيطان فى الحسد ، والبغى ، والغش ، والغل ، والخداع ، والمكر ، والأمر بمعاصى الله ، وتحسينها ، والنهى عن طاعته ، وتهجينها[1] ، والابتداع فى دينه ، والدعوة إلى البدع والضلال .

وهذا النوع يلى النوع الأول فى المفسدة ، وإن كانت مفسدته دونه .

فصل

وأما السبعية : فذنوب العدوان ، والغضب ، وسفك الدماء ، والتوثب على الضعفاء والعاجزين ، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنسانى ، والجرأة على الظلم والعدوان .

وأما الذنوب البهيمية : فمثل الشره ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى ، والسرقة ، وأكل أموال اليتامى ، والبخل ، والشح ، والجبن ، والهلع ، والجزع ، وغير ذلك .

---

(١) تهجين الشيء : تقبيحه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام ، فهو يجرهم إليها بالزمام ، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ، ثم إلى الشيطانية ، ثم إلى منازعة الربوبية ، والشرك في الوحدانية .

ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته .

فصل

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر ، قال الله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ [النساء : ٣١] . وقال تعالى ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم(١) ﴾ [النجم : ٣٢] .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات :

إحداها : أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها ، والقيام بحقوقها ، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفيـة .

الثانية : أن تقاوم الصغائر ، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر .

الثالثة : أن تقوى على تكفير الصغائر ، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر . فتأمل هذا ، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بأكبر

---

(١) اللمم : الذنب يلم به العبد .

الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . فقال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين . وشهادة الزور » .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الإشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم « أنه سئل : أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك . قيل : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك » فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ﴾ [الفرقان : ٦٨] الآية .

واختلف الناس فى الكبائر ، هل لها عدد يحصرها ؟ على قولين :

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها ، فقال عبد الله بن مسعود : هى أربع ، وقال عبد الله بن عمر هى سبع ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص هى تسعة ؛ وقال غيره هى إحدى عشرة . وقال آخر : هى سبعون .

وقال أبو طالب المكى : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب ، وهى : الشرك بالله ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله . وأربعة فى اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر . وثلاث فى البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا . واثنان فى الفرج ، وهما : الزنى ، واللواط . واثنان فى اليدين وهما : القتل ، والسرقة . وواحد فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف . وواحد يتعلق بجميع الجسد ، وهو عقوق الوالدين .

والذين لم يحصروها بعدد ، منهم من قال : كل ما نهىَ الله عنه فى القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة .

وقالت طائفة : ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقترن به شىء من ذلك فهو صغيرة .

وقيل : كل ما يرتب عليه حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة ، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة .

وقيل : كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر ، وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة .

وقيل : كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة ، وقيل : كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء : ٣١] .

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها - بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره - كبائر ، فالنظر إلى من عصى أمره . وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر ، وهى مستوية فى هذه المفسدة ، قالوا : ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها ، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض ، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ، ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب .

قالوا : ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هى تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ، وهذا لو شرب رجل خمراً أو وطئ فرجاً حراماً ، وهو لا يعتقد تحريمه ، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين ، وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول : فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب .

قالوا : ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته ، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب .

قالوا : فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه ، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه ، وعظمته ، وانتهاك حرمته بالمعصية ، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية ، فإن ملكاً مطاعاً عظيما لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب فى مهم له إلى بلد بعيد ، وأمر آخر أن يذهب فى شغل له إلى جانب الدار ، فعصياه وخالفا أمره ، لكانا فى مقته والسقوط من عينه سواء .

قالوا : ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا فى منع ما وجب على كل واحد منهما ، ولا يبعد استواؤهما فى العقوبة ، إذا كان كل منهما مصراً على منع زكاة ماله ، قليلا كان المال أو كثيراً .

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال :

إن الله عز وجل أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وخلق السموات والأرض ليعرف ويُعبد ويوحَّد ويكون الدين كله لله ، والطاعة كلها له ، والدعوة له كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال تعالى ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الحِجْر : ٨٥] . وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾ [الطلاق : ١٢] . وقال تعالى ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام

والهدى والقلائد[1] ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم ﴾ [المائدة : ٩٧] .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر : أن يعرف بأسمائه وصفاته ، ويعبد وحده لا يشرك به ، وأن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض ، كما قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقومَ الناسُ بالقسط ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد ، وهو رأس العدل وقوامه . وإن الشرك لظلم عظيم ، فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر ، وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات .

فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين ، وأعلم العالمين ، فيما فرضه على عباده ، وحرمه عليهم ، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى .

فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم ، لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا ، أو يقبل فيه شفاعة ، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة ، أو يقيل له فيها عثرة ، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله ، حيث جعل له من خلقه نداً ، وذلك غاية الجهل به ، كما أنه غاية الظلم منه ، وإن كان المشرك لم يظلم ربه ، وإنما ظلم نفسه .

---

(١) القلائد : جمع قلادة ، من تقليد الهدى ، وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

فصل

ووقعت مسألة ، وهى : أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء ، كحال الملوك ، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال : إنما اعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه وتدلنى وتدخلنى عليه ، فهو المقصود ، وهذه وسائل وشفعاء ، فلِمَ كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ؛ ومخلداً فى النار ، وموجباً لسفك دماء أصحابه ، واستباحة حريمهم وأموالهم ؟ .

وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو : أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع أن تأتى به شريعة ؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما فى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السر فى كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب ؟ كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] .

فتأمل هذا السؤال ، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه ، فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار .

فنقول ، وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نسأل المعونة والتسديد ، فإنه من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وشرك فى عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

والشرك الأول نوعان : أحدهما شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون إذ قال : ﴿ وما رب العالمين ؟ ﴾ [الشعراء : ٢٣] . وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال لهامان ﴿ وقال فرعون ياهامان ابْنِ لى صرحاً لعلّى أبلغ الأسباب ، أسبابَ السمٰوات فأطلع إلى إلٰه موسى ، وإنى لأظنه كاذباً ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] والشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل ، وكل معطل مشرك ، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ولكنه عطل حق التوحيد ، وأصل الشرك وقاعدته التى يرجع إليها : هو التعطيل ؛ وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون : ما ثم خالق ومخلوق ، ولا هاهنا شيئان ، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً ، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ، يسمونها بالعقول والنفوس ، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرّب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة ، فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه ، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثانى : شرك من جعل مع الله إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلهاً ، وأمـه إلهاً .

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه ، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته ، ولهذا كانوا أشباه المجوس .

ومن هذا شرك الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه ﴿ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت ، قال : أنا أحيي وأميت ﴾ [البقرة : ٢٥٨] فهذا جعل نفسه نداً لله ، يحيي ويميت بزعمه ، كما يحيي الله ويميت ، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتى بها الله منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل ، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً .

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم .

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم .

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة ، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة ، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أنه معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه ، والفوقانى يقربه إلى من هو فوقه ، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى ، فتارة تكثر (الآلهة) والوسائط وتارة تقــل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة : فهو أسهل من هذا الشرك ، وأخف أمراً ، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص الله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة ، فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ،

وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب ، وهذا حال أكثر الناس . وهو الشرك الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان فى صحيحه « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، قالوا : كيف ننجو منه يا رسول الله ؟ قال : قل اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » فالرياء كله شرك ، قال تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] أى كما أنه إلٰه واحد ، ولا إلٰه سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر ، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة ، قال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء[1] ﴾ [البيِّنة : ٥] . فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شىء غير المأمور به ، فلا يصح ، ولا يقبل منه ، ويقول الله « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى ، فهو للذى أشرك به ، وأنا منه برىء » .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، وأكبر وأصغر ، والنوع الأول : ينقسم إلى كبير وأكبر . وليس شىء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم أن يحب مخلوقاً كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ،

(١) حنفاء : جمع حنيف ، وهو المستقيم غير المائل إلى التفريط ولا إلى الإفراط .

وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبًّا لله ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نُسوِّيكم برب العالمين ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] .

ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق ، والرزق ، والإماتة . والإحياء . والملك ، والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يُسوَّى التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات . العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنىِّ بالذات ، القادر بالذات . الذى غناه ، وقدرته ، وملكه ، وجوده ، وإحسانه ، وعلمه ، ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ .

فأى ظلم أقبح من هذا ؟ وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى ﴿ الحمد لله الذى خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : ١] فعدل المشرك من خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور . بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحـه !! .

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الأفعال ، والأقوال ، والإرادات ، والنيات ، فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، وتقبيل القبور ، واستلامها ، والسجود لها ، وقد لعن النبى

صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها ، فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدها من دون الله ؟ .

فنى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى الصحيح عنه : « إن من أشرار الناس مَنْ تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » .

وفى الصحيح أيضاً عنه : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وفى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه ، وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله زوّارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وقال : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وقال : « إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر ، فكيف حال من سجد للقبر نفسه ؟ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد » وقد حمى النبى صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية ، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين ، وسدّ الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس .

وأما السجود لغير الله فقال « لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد إلا لله » و « لا ينبغى » فى كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للذى هو فى غاية الامتناع شرعاً ،

كقوله تعالى ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ [مريم : ٩٢] . وقوله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ [يس : ٦٩] . وقوله ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم ﴾ [الشعراء : ٢١٠] وقوله عن الملائكة ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ [الفرقان : ١٨] .

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ ، كالحلف بغيره ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » صححه الحاكم وابن حبان .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل « ما شاء الله وشئت ، فقال : أجعلتنى لله نداً ؟ قل : ما شاء الله وحده » . هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوير : ٢٨] . فكيف بمن يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، ومالى إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض ، أو يقول : والله وحياة فلان ، أو يقول : نذرا لله ولفلان ، أو أنا تائب لله ولفلان ، أو أرجو الله وفلاناً ، ونحو ذلك ؟ .

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أفحش ؟ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعل لله نداً فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شيء من الأشياء — بل لعله أن يكون له من أعدائه — نداً لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل ، والإنابة ، والتقوى ، والخشية ، والحسب ، والتوبة ، والنذر ، والحلف ، والتسبيح ، والتكبير ، والتهليل ، والتحميد ،

والاستغفار ، وحلق الرأس خضوعاً ونعبدًا ، والطواف بالبيت ، والدعاء ، كل ذلك محض حق الله الذى لا يصلح ولا ينبغى لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل

وفى مسند الإمام أحمد « أن رجلا أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد أذنب ذنباً ، فلما وقف بين يديه قال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : قد عرف الحقَّ لأهله » .

فصل

وأما الشرك فى الإرادات والنيات فذلك البحر الذى لا ساحل له ، وقَل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك فى نيته وإرادته . والإخلاص : أن يخلص لله فى أقواله وأفعاله وإرادته ونيته . وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ، ولا يقبل من أحد غيرها وهى حقيقة الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران : ٨٥] وهى ملة إبراهيم التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور ، فنقول ، ومن الله وحده نستمد الصواب .

حقيقة الشرك : هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به ، هذا هو التشبيه فى الحقيقة ، لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ، فعكس الأمر من نكس الله قلبَه ، وعمى عين بصيرته ، وأركسه بكسبه ، وجعل التوحيد تشبيهاً ، والتشبيه تعظيماً وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية . فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء

والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - فضلا عن غيره - شبيها لمن له الأمر كله ، فأزمّة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد .

فمن أقبح التشبيه : تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغنى بالذات

ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة ، وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده ، ويمنع عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا نِدّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

ومن خصائص الإلهية : العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه فى خالص حقه . وهذا من المحال أن تجىء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم واجتالتهم [1] عنها ، ومضى على الفطرة الأولى من

(١) اجتالتهم الشياطين : أى استخفتهم وركبتهم وجالت بهم حيث شاءت من السفه والضلال ، فجالوا معهم وبعدوا عن الفطرة السليمة .

سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ ، [النور : ٣٥]

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به .

ومنها : التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها : التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به .

ومنها : الحلف باسمه تعظيماً وإجلالا له ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه .

وأما فى جانب التشبه به : فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم والخضوع والرجاء ، وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ، ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت أقدام خلقه .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته » وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة ، فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والإلهية ؟ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون ، يقال لهم أحيوا ما خلقتم »

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر .

والمقصود : أن هذا حال من تشبه به فى صنعة صورة ، فكيف حال من تشبه

به فى خواص ربوبيته وإلهيته ؟ وكذلك من تشبه فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الأحكام ، ونحوه

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أخضع الأسماء [1] عند الله رجل يسمى : بشاهان شاه ـ أى ملك الملوك ـ لا ملك إلا الله » وفى لفظ « أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك » .

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ، ويقضى عليهم كلهم ، لا غيره .

فصل

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [الفتح : ٦] . وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فُصِّلت : ٢٣] . وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه ﴿ ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ﴾ [الصَّافات : ٨٥ ـ ٨٧] أى فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شىء عليم ، وهو على كل شىء قدير ، وأنه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ،

(١) أى أحقـرها .

وأنه بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره ، والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه ، والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته ، فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، ويعينهم على قضاء حوائجهم ، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شىء ، الغنى بذاته عن كل شىء ، العالم بكل شىء ، الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ، ويمتنع فى العقول والفطر جوازه ، وقبحه مستقر فى العقول السليمة فوق كل قبيح .

ويوضح هذا : أن العابد معظم لمعبوده ، متأله له ، خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل ، وهذا خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما إذا كان الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ [الروم : ٢٨] أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه فى رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية ، التى لا تنبغى لغيرى ، ولا تصح لسواى ؟ .

فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمنى حق تعظيمى ، ولا أفردنى بما أنا منفرد به وحدى دون خلقى فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيرى ،

كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه ، وقال تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [الزمر : ٦٧] فما قدر مَن هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شىء من ذلك ألبتة ، بل هو أعجز شىء وأضعفه ، فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتاباً ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى ، وخلقهم باطلا وعبثاً ، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه ، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون ، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد ، ولا له عليه قدرة ، ولا تأثير له فيه ألبتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذى جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول أن

السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً ، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير . ولا هو واقع بإرادته ، بل ولا هو فعله ألبتة ، ثم يعاقبه عليه عقوبة الأبد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش[1] ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان ، وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] . وتعرج الملائكة والروح إليه ، وتنزل من عنده ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ [السجدة : ٥] فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله فى كل مكان يأنف الإنسان ، بل غيره من الحيوان ، أن يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ، ولم يجعل له فعلا اختيارياً يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه ، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التى نفوها ، وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً ، أو جعله سبحانه يحل فى مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود .

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز ، ووضع أولياء

---

(١) الحش : بيت الخلاء الذى تقضى فيه الحاجة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذلة أينما ثُقفوا . وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب ، تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً .

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى فى رب العالمين : أنه أرسل ملكاً ظالماً ، فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله ، ومكث زمناً طويلا يكذب عليه كل وقت ، ويقول : قال الله كذا ، وأمر بكذا ، ونهى عن كذا ، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ، ويقول : الله أباح لى ذلك ، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ، ويعزه ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن خالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شىء .

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علواً كبيراً .

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين ، كما قال الشـــاعر :

رضيعىْ لبـــان ثدى أم تقاسما   بأسحم داج عوض لا نتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء ، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك ، فمنعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله . وقد أنكر سبحانه فى كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار ، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام . قال تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا

الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ [ص : ٢٧ ــ ٢٨] . وقال ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون ﴾ [الجاثية : ٢١ ، ٢٢] . وقال ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾ [القـلم : ٣٥ ، ٣٦] .

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين للمشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذى يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدر حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم من طاعته ، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، وهواه المقدم فى ذلك لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو فى قبضته ، وناصيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، يستحي من الناس ولا يستحي من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه ، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه ــ إن ساعد القدر ــ قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوق لمثله ، فهل قدر الله حق قدره مَن هذا وصفه ؟

وهل قدر حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً فى ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه ، واستهانة به ، وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ [يس : ٦٠ — ٦١] . ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم فى نفس الأمر للشياطين ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سَبَأ : ٤٠ ، ٤١] فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ، ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عُبّاد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب . وهى التى تخاطبهم ، وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعباد أمه ، ورضيه لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم ، لا عبد الله ورسوله ، فنزل هذا كله على قوله تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ، أن لا تعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم [يس : ٦٠ — ٦١] . فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان[١] فيستمتع العابد

(١) ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى على لسان إبراهيم لأبيه : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ (مريم : ٤٤) .

بالمعبود فى حصول غرضه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس - أى من إغوائهم وإضلالهم - ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال : النار مثواكم خالدين فيها ، إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ﴾ . [الأنعام : ١٢٨]

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود فى العذاب ، وأنه ليس تحريمه وقبحه لمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن فى مشاركته فى ذلك ، أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فصل

فلما كان الشرك أكبر شىء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق ، وأمر لأجله بالأمر ، كان أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه خلق الخلق ، وأنزل الكتاب ، لتكون الطاعة له وحده . والشرك والكبر ينافيان ذلك ، وكذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر فلا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبر .

فصل

ويلى ذلك فى كبر المفسدة : القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله . ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا أشد شىء مناقضة ومنافاة لكمال من له الخلق والأمر ، وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً

عند الله ، فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ! كما أن من أقر للملك بالملك ، ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك ، لكن جعل معه شريكاً فى بعض الأمور يقربه إليه ، خير ممن جحد صفات الملك ، وما يكون به ملكاً ، هذا أمر مستقر فى سائر الفطر والعقول .

فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالا ؟ .

فداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له . ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ، فقال : ﴿ يا هامان ابن لى صرحاً لَعلِّى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فأطلع إلى إلٰه موسى . وإنى لأظنه كاذباً ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية . وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب(١) ، والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان . ولما كانت البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً وجهلا كانت من أكبر الكبائر ، وإن قصرت عن الكفر ، وكانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب ، كما قال بعض السلف « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها » . وقال إبليس « أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار وبلا إلٰه إلا الله ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع فى أصل الدين ، وفتنة المذنب فى الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس

---

(١) ذكره الشيخ فى كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية ، على حرب المعطلة والجهمية » .

على صراط الله المستقيم يصدهم عنه ، والمذنب ليس كذلك . والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصى بطىء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى به قامت السموات والأرض ، وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس به كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه ، وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له — وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليهم ، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة ، فقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله — من أقبح الظلم وأشده وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذا رحمه ، وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله للسعى فى إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبى ويليه من قتل إماماً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ، ويدعوهم إلى الله سبحانه ، وينصحهم فى دينهم ، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود فى النار ، وغضب الجبار ، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا ، وخرج منها بظلامته ، فلا بد أن يستوفى له فى دار العدل .

قالوا : وما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله بين

استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ .

وهذا أصح القولين فى المسألة : أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعى وغيرهما .

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده .

قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتلة ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه ، وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة . وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] فهذه فى حق التائب وهى تتناول الكفر وما دونه .

قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه .

قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث .

والتحقيق فى المسألة : أن القتل يتعلق به ثلاث حقوق : حق لله ، وحق للمقتول ، وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولى ندماً على ما فعل ، وخوفاً من الله ، وتوبة نصوحاً ، سقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو . وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ، ولا تبطل توبة هـذا .

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها ، فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهدته فى الآخرة ، كما برئ منها فى الدنيا .

وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته ، ومات ولم ينتفع به . وهذا ظلم لم يستدركه ، وإنما ينتفع غيره باستدراكه ، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة . كانت المطالبة به للجميع ، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث . وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد .

وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من أخذ ماله أو المطالبة به فلم يأخذه حتى مات ، صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه ، بل حال بينه وبينه ظلماً وعدواناً ، فالطلب له فى الآخرة .

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال ، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر عليه أخذه منه صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل ، وداره التى أحرقها غيره ، وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره . ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث ، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه . يبقى أن يقال : فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت ، فهى ملك الوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا .

وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً ، كما لو غصب مالا مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض ، والله أعلم .

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة ، قال الله تعالى ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقال : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه فى مقدار الإثم والعقوبة ، واللفظ يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشىء بالشىء أخذه بجميع أحكامه . وقد قال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٦] . وقال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : ٣٥] وذلك لا يوجب أن لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله » . أى مع العشاء كما جاء فى لفظ آخر . وأصرح من هذا قوله « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر » . وقوله صلى الله عليه وسلم « من قرأ : قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به ، فيكون قدرهما سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى العشاء والفجر جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتى أحد — بعد الإيمان — أفضل من الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فإن قيل : ففى أى شىء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعاً ؟ قيل ، فى وجوه متعددة :

أحدها : أن كلا منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لأمره ،

متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته ، واستحقاق الخلود فى نار جهنم ، وإعداده له عذاباً عظيما ، وإنما التفاوت فى دركات العذاب ، فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلا أو عالماً يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس .

الثانى : أنهما سواء لاستحقاق إزهاق النفس .

الثالث : أنهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام ، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق ، بل لمجرد الفساد فى الأرض أو لأخذ ماله ، فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الإنسانى .

ومنها : أنه يسمى قاتلا أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً ، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً .

ومنها : أن الله سبحانه جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فإذا أتلف القاتل من هذا الجسد عضواً فكأنما أتلف سائر الجسد ، وآلم جميع أعضائه ، فمن آذى مؤمناً واحداً فكأنما آذى جميع المؤمنين ، وفى أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس ، فإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم ، فإيذاء الخفير إيذاء المخفور . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كِفل[1] من دمه ، لأنه أول من سَنَّ القتل » . ولم يجئ هذا الوعيد فى أول زانٍ ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر . وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل ، لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن لحى الخزاعى يعذب بأعظم العذاب فى النار ، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام . وقد قال تعالى ولا تكونوا

(١) الكفل – بكسر الكاف وسكون الفاء – : النصيب .

أول كافر به ﴾ [البقرة : ٤١] أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم ، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفى جامع الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دماً ، يقول : يارب ، سل هذا : فيم قتلنى ؟ فذكروا لابن عباس التوبة ، فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ » [النساء : ٩٣] ثم قال : «ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة ؟ » . وقال الترمذى هذا حديث حسن .

وفيه أيضاً : عن نافع قال « نظر عبد الله بن عمر يوماً إلى الكعبة ، قال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك » . قال : هذا حديث حسن .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال « أول ما ينتن من الإنسان بطنه ، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهراقه فليفعل » .

وفى صحيحه أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » .

وذكر البخارى أيضا عن ابن عمر قال « من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة يرفعه « سباب المسلم(١) فسوق وقتاله كفر » .

وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

---

(١) فى نسخة : « سباب المؤمن – إلخ » .

وفى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان فى عهده وأمانه ، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن ؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً ، فرآها النبى صلى الله عليه وسلم فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم ؟ وفى بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق » .

فصل

ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد ، وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات ، وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه ، وفى ذلك خراب العالم . كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم فى سننه كما تقدم .

قال الإمام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى . وقد أكد سبحانه حرمته بقوله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلّدُ فيه مُهاناً ، إلا من تاب ﴾ [الفرقان : ٦٨ـ ٧٠] . فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود فى العذاب المضاعف ، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ [الإسراء : ٣٢] . فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه فى العقول حتى عند كثير من الحيوان ، كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون

الأودى قال « رأيت فى الجاهلية قرداً زنى بقردة ، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا » ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا ، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا ، وعذاب وخزى ونكال فى الآخرة ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ [النساء : ٢٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه منه ، فقال ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين — إلى قوله — فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [المؤمنون : ١ — ٧] .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح ، واستحق اسم العدوان ، ووقع فى اللوم ، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك .

ونظير هذا : أنه سبحانه ذم الإنسان ، وأنه خلق هلوعاً لا يصبر على سراء ولا ضراء ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه ، فذكر منهم : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [المعارج : ٢٩ — ٣١] فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤها من البصر ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ،

تكون نظرة ، ثم خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة ؟ ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة : ويلازم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ، ويُتبر ما علا تَتبيراً .

فصل

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة ، فنذكر في كل باب منها فصلا يليق به .

فأما اللحظات : فهي رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الأخرى » .

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس : فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه . هذا معنى الحديث . وقال « غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم » . وقال « وإياكم والجلوس على الطرقات . قالوا يا رسول الله مجالسنا ، ما لنا بد منها . قال : فإن كنتم لا بد فاعلين ، فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، وردُّ السلام » .

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فالنظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فيقع الفعل ولا بد ، ما لم يمنع منه مانع . وفي هذا قيل « الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده » قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظـر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت من قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والعبــد ما دام اذ طرف يقلبه   فى أعين العين موقوف على الخطر
يسرور مقلتــه ما ضر مهجتــه   لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر : أنه يورث الحسرات والزفرات الحرقات ، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه ، وهذا من أعظم العذاب : أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه ، ولا قدرة على بعضه قال الشاعر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً   لقلبك يوماً ، أتعبتك المنــاظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلى شرح . ومراده : أنك ترى ما لا تصبر عن شىء منه ولا تقدر عليه ، فإن قوله « لا كله أنت قادر عليه » نفى لقدرته على الكل الذى لا ينفى إلا بنفى القدرة عن كل واحد واحد .

كم من أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلا ، كما قيل :

يا ناظراً ، ما أقلعت لحظــاته   حتى تشحط بينهن قتيــلا

ولى من أبيات :

ملّ السلامة فاغتدت لحظــاته   وقفاً على طلل يظن جميلا
ما زال يتبع إثــره لحظاته   حتى تشحط بينهن قتيــلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه ، حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر ، ولى من قصيدة :

يا رامياً بسهام اللحظ مجتهــداً   أنت القتيل بما ترمى ، فلا تصب
يا باعث الطرف يرتاد الشفاء له   احبس رسولك ، لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك ، أن النظرة تجرح القلب جرحاً ، فيتبعها جرحاً على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها . ولى أيضاً فى هذا المعنى :

ما زلت تتبع نظــرة فى نظــرة   فى إثر كل مليحــة ومليح

وتظن ذاك دواء جرحك وهو فى الـ تحقيق تجريح على تجريح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

فصل

وأما الخطرات : فشأنها أصعب ، فإنها مبدأ الخير والشر ، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب . ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات . ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنًى[1] ﴿ كسراب بقيعة[2] يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ﴾ ، [النور : ٣٩] وأخس الناس همة ، وأوضعهم نفساً من رضى الحقائق بالأمانى الكاذبة ، واستجلبها لنفسه ، وتحلى بها ، وهى لعمر الله رؤوس أموال المفلسين ، ومتاجر البطالين وهى قوت النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أمانى من سعدى رواء على الظما سقتنا بها سعدى على ظمإ بردا
منى إن تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وهى أضر شىء على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفريط والحسرة والندم . والمتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها فى قلبه ، وعانقها وضمها إليه ، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدى عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور فى وهمه صورة الطعام

---

(١) منى : جمع منية ، وهى ما تتمناه النفس .
(٢) القيعة والقاع : المستوى من الأرض .

والشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب . والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها . وإنما شرف النفس وزكاؤها ، وطهارتها وعلوها بأن ينفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا يرضى أن يخطرها بباله ، ويأنف لنفسه منها .

ثم الخطرات بعد اقسام ندور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها منافع دنياه ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته .

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه فى هذه الأقسام الأربعة ، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره ، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته ، وأخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته .

بقى قسمان آخران ، أحدهما : مهم لا يفوت . والثانى : غير مهم ولكنه يفوت ، ففى كل منهما ما يدعو إلى تقديمه ، فهنا يقع التردد والحيرة ، فإن قدَّم المهم خشى فوات ما دونه وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم ، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر ، فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن ههنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت ، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر .

والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها مرجع الخلق والأمر ، وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما ، وإن فاتت المصلحة التى هى دونها ، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها ؛

فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منهـا .

فخطرات العاقل وفكره لا يجاوز ذلك ، وبذلك جاءت الشرائع ، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها : ما كان لله والدار الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع

أحدها : الفكرة فى آياته المنزلة وتعقلها ، وفهم مراده منها ، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها ، بل التلاوة وسيلة . قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا .

الثانى : الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته ، وإحسانه ، وبره ، وجوده ، وقد حض الله سبحانه عباده على التفكر فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

الثالث : الفكرة فى آلائه وإحسانه ، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم ، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة فى عيوب النفس وآفاتها ، وفى عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع ، وهى باب لكل خير ، وتأثيرها فى كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت [1] وصار الحكم لها ، فحيي القلب ودارت كلمته فى مملكته ، وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه .

الخامس : الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته ، وجمع الهم كله عليه ، فالعارف ابن وقته ، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح

---

(١) فى رواية : « وانتعشت » .

إنما تنشأ من الوقت ، وإن ضيعه لم يستدركه أبداً .

قال الشافعى رضى الله عنه « صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين : أحدهما قولهم : الوقت سيف ، فإن قطعته وإلا قطعك . وذكر الكلمة الأخرى : ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل ، فوقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك فى العذاب الاليم ، وهو يمر أسرع من السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عاش عيش البهائم ، فإذا قطع وقته فى الغفلة والسهو والأمانى الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا خير له من حياته ، وإذا كان العبد وهو فى الصلاة ليس له (من صلاته) إلا ما عقل منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر ، فإما وساوس شيطانية ، وإما أمانى باطلة ، وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول ، عند انكشاف الحقائق :

إن كان منزلتى فى الحشر عندكم ما قد لقيت ، فقد ضيعت أيامى[1]
أمنية ظفرت نفسى بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث احلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته ، فالخاطر كالمار على الطريق فإن تركته مر وانصرف عنك ، وإن استدعيته سحرك بحديثه خدعه وغروره ، أخف شىء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شىء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة .

وقد ركّب الله سبحانه فى الإنسان نفسين . نفساً أمارة ، ونفساً مطمئنة ، وهما متعاديتان ، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه

(١) كذا ، والمحفوظ : « إن كان منزلتى فى الحب عندكم » .

تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها ، وليس لها أنفع منه ، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وما جاء به داعي الهوى . وليس عليها شيء أضر منه . والملك مع هذه عن يمنة القلب ، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفي أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدو أبداً : أن العاقبة للتقوى . والعاقبة للمتقين ،

فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع ، وأماني باطلة ، وسراب لا حقيقة له ؟ فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة ، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ ، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

وهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر ، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم ، حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لا شيء فيها ، فصادفها الشيطان خالية ، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها ، وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى ، وإذ خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً ، فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع

أن يشغله بالخواطر السفلية ، فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التى لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هى المستولية على قلبه ، وهى إرادة مراد الله الدينى الأمرى الذى يحبه ويرضاه ، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به ، والقيام به وتنفيذه فى الخلق ، والتطرق إلى ذلك ، والتوصل إليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه ، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها . وأوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ . وهيهات هيهات إنما الكمال فى امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر فى تحصيل مراضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر فى طرق ذلك والتوصل إليه ، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك ، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت ، والله المستعان .

ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مراضى الرب تعالى ، فربما استعملها فى صلاته ، وكان يجهز جيشه وهو فى الصلاة ، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة . وهو باب عزيز شريف ، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب ، متضلع من العلم عالى الهمة ، بحيث تدخل فى عبادة يظفر فيها بعبادات شتى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فصل

وأما اللفظات : فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة ، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه ، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر : هل تفوت بها كلمة هى أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه ، وإذا أردت أن تستدل

على ما فى القلب فاستدل عليه بحركة اللسان ، فإنه يطلعك على ما فى القلب ، شاء صاحبه أم أبى .

قال يحيى بن معاذ « القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها » . فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما فى قلبه ، حلو وحامض ، وعذب وأجاج ، وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أى كما تطعم بلسانك طعم ما فى القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما فى قلب الرجل من لسانه ، فتذوق ما فى قلبه من لسانه كما تذوق ما فى القدور بلسانك .

فى حديث أنس المرفوع « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال « الفم والفرج » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد سأل معاذ النبى صلى الله عليه وسلم عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده من النار ، فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ثم قال : كف عليك هذا ، فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكُب الناس على وجوههم — أو على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ، ومن النظر المحرم وغير ذلك ، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه ، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ،

ولسانه يفرى[١] فى أعراض الأحياء والأموات ، ولا يبالى ما يقول .

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذى يتألى علىّ أنى لا أغفر لفلان[٢] ؟ قد غفرت له وأحبطت عملك » فهذا العابد الذى قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله .

وفى حديث أبى هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريرة « تكلم بكلمة أوبقت[٣] دنياه وآخـرته » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى نار جهنم » . وعند مسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها فى النـار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

وعند الترمذى من حديث بلال بن الحارث المزنى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » وكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ؟ .

وفى جامع الترمذى أيضاً من حديث أنس قال « توفى رجل من الصحابة ، فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك ؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه » قال : حديث حسن .

---

(١) فرى الجلد : مزقه . (٢) هو من الألية وهى اليمين .
(٣) أوبقت : أهلكت .

وفى لفظ « إن غلاماً استشهد يوم أحد ، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ، فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئاً لك يا بنى ، لك الجنة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ، ويمنع ما لا يضره » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وفى لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت » .

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ، قلت : يارسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا » والحديث صحيح .

وعن أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله عز وجل » قال الترمذى : حديث حسن . وفى حديث آخر « إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول : اتق فينا فإنما نحن بك ، فإذا استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه فى قوله : يوم حار ، ويوم بارد ، ولقد رؤى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها ، قلت ما أحوج الناس إلى غيث ، فقيل لى : وما يدريك ؟

أنا أعلم بمصلحة عبادى . وقال بعض الصحابة لجاريته يوماً : هاتى السفرة نعبث بها ، ثم قال : أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها [١] إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام ، أو كما قال : وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهى أضرها على العبد .

واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط ؟ على قولين أظهرهما الأول .

وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من الله وما والاه [٢] وكان الصديق رضى الله عنه يمسك على لسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد ، والكلام أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره . والله عند لسان كل قائل ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٨] .

وفى اللسان آفتان عظيمتان ، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى . آفة الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى فى وقتها ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، عاص لله ، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه . والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف فى كلامه وسكوته ، فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل ، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة ، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة ، فضلا أن تضره فى آخرته ، وإن العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتى بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به .

---

(١) خطم البعير : أن يؤخذ حبل من ليف أو شعر من كتان فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البعير ، ثم يثنى على مخطمه وهو أنفه . وأما الحبل الذى يجعل فى الأنف دقيقاً فهو الزمام .

(٢) أى وما تبع ذكر الله . وقد تقدم قريباً أنه حديث من رواية أم حبيبة .

فصل

وأما الخطوات : فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه ، فإن لم يكن فى خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله ، فتقع خطاه قربة .

ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى فى قوله تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوناً [1] وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان : ٦٣] فوصفهم بالاستقامة فى لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطوات فى قوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعينُ وما تُخفى الصدور) [غافر : ١٩] .

فصل

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدى تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أكثر ما يدخل الناس النار : الفم والفرج » .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى . والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وهذا الحديث فى اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التى فى الفرقان ، ونظير حديث ابن مسعود .

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأكثر وقوعاً ، والذى يليه ، فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة ، وأيضاً فإنه انتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم ، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ، ونكست رؤوسهم بين الناس

---

(١) الهون : الرفق واللين .

وإن حملت من الزنى ، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم ، فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم ، إلى غير ذلك من مفاسد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضاً ، وإفساد المرأة المصونة ، وتعريضها للتلف والفساد ، وفى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين ، وإن عمرت القبور فى البرزخ والنار فى الآخرة ، فكم فى الزنى من استحلال لحرمات ، وفوات حقوق ، ووقوع مظالم ! .

ومن خاصيته : أنه يوجب الفقر ، ويقصر العمر ، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس .

ومن خاصيته أيضاً : أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

وقال سعد بن عبادة رضى الله عنه « لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مُصفَح [1] فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » متفق عليه .

وفى الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى العبد ماحرم عليه » .

وفى الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « لا أحد أغير من الله ، من

(١) بضم الميم وفتح الفاء ، يقال : أصفحه بالسيف ، أى ضربه بعرضه دون حده .

أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه » .

وفى الصحيحين فى خطبته صلى الله عليه وسلم فى صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ثم رفع يديه وقال : اللهم هل بلغت ؟ » .

وفى ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله ، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم ، وهو من أشراط الساعة ، كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال « لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدى ، سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

وقد جرت سنة الله سبحانه فى خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه فى الأرض عقوبة ، قال عبد الله ابن مسعود « ما ظهر الربى والزنى فى قرية إلا أذن الله بإهلاكها » ورأى بعض أحبار بنى إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال : مهلا يا بنى ، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه ، وأسقطت امرأته ، وقيل له « هكذا غضبك لى ؟ لا يكون فى جنسك خير أبداً » .

وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص :

أحدها : القتل فيه بأشنع القتلات ، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة .

الثانى : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة فى دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره .

وهذا — وإن كان عاماً فى سائر الحدود — ولكن ذكر فى حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره ، فإن الناس لا يجدون فى قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزانى ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر ، فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم ، والواقع شاهد بذلك ، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله .

وسبب هذه الرحمة : أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل ، وفى النفوس أقوى الدواعى إليه ، والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق ، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق ، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة ، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه ، ولا يستنكر هذا الأمر : فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام ، ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نقاص العقول كالخدام والنساء .

وأيضاً فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضى من الجانبين ، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه ، وفى النفوس شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد ، وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود ، فيكون موافقاً لربه تعالى فى أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون فى خلوة بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر ، وحد

المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة ، وذلك لاشتراك الزنى واللواط فى الفحش ، وفى كل منهما فساد يناقض حكمة الله فى خلقه وأمره ، فإن فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، ويذهب خيره كله ، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحيي بعد ذلك من الله ولا من خلقه ، وتعمل فى قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم فى البدن .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، سمعت شيخ الإسلام يحكيهما .

والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور :

منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة ولد زنية » فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له فى ذلك ، ولكنه مظنة كل شر وخبث ، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبداً ، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذى تربى على الحرام ، النار أولى به ، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ؟ .

قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى وأخبث وأوقح ، وهو جدير أن لا يوفق لخير ، وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيراً قيض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو فى كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعلم نافع ولا عمل صالح ولا توبة نصوح .

والتحقيق فى المسألة أن يقال : إن تاب المبتلي بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحاً وعمل صالحاً ، وكان فى كبره خيراً منه فى صغره ، وبدل سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله فى معاملته ، فهذا مغفور له ، وهو من

أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب ، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه والسحر والكفر وغير ذلك ، فلا تقصر عن محو هذا الذنب ، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه يبدل سيئاته حسنات ، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب ، وقد قال تعالى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : ٥٣] فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ، ولكن هذا فى حق التائبين خاصة .

وأما المفعول به إن كان فى كبره شراً مما كان فى صغره : لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح ، ولا استدرك ما فات . ولا أبدل السيئات بالحسنات ، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة ، عقوبة له على عمله ، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى .

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة ، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلى رحمه الله :

« واعلم أن لسوء الخاتمة ــ أعاذنا الله منها ــ أسباباً ، ولها طرق وأبواب ، أعظمها الانكباب على الدنيا ، والإعراض عن الأخرى ، والإقدام والجرأة على معاصى الله عز وجل ، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية ، وجانب من الإعراض ، ونصيب من الجرأة والإقدام فملك قلبه ، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك ، فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعى وأعاد .

ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد .

قال : ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول : قل لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاى ، فأعاد عليه القول ، فأعاد مثل ذلك ، ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاى ، وكان هذا دأبه ، كلما قيل له لا إله إلا الله ، قال : الناصر مولاى ، ثم قال لابنه : يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك ، والقتل القتل ، ثم مات . قال عبد الحق : وقيل لآخر - ممن أعرفه - قل لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلانى افعلوا فيه كذا .

قال : وفيما أذن لى أبو طاهر السلفى أن أحدث به عنه أن رجلا نزل به الموت ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده ده وازدة ، تفسيره : عشرة بأحد عشر ، وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ .

قال : وهذا الكلام له قصة ، وذلك أن رجلا كان واقفاً بإزاء داره ، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها . فلما رأت نفسها فى داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه ، وقالت له : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين ، وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها ، فأخذ ما يصلح ورجع ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم تخنه فى شىء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها ، وجعل يمشى فى الطرق والأزقة ويقول :

يارُبَّ قائلة يوماً ، وقد تعبت : كيف الطريق إلى حمام منجاب

فبينما هو يوماً يقول ذلك ، وإذا بجارية أجابته من طاق :

هلا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها حرزاً على الدار أو قفلا على الباب

فازداد هيمانه واشتد ، ولم يزل على ذلك ، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيـــا .

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح ، فلما أصبح قيل له : كل هذا خوفاً من الذنوب ؟ فأخذ تبنة من الأرض ، وقال : الذنوب أهون من هذا ، وإنما أبكى من خوف (سوء) الخاتمة .

وهذا من أعظم الفقه : أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت ، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى .

قال : واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد ، وإنما تكون لمن له فساد فى العقد أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم[1] قبل الإنابة ، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله .

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة ، فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصرانى فاطلع فيها ، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها ، فترك الأذان ،

(١) الاصطلام : الاستئصال .

ونزل إليها ، ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك ، وما تريد ؟ قال : أريدك . قالت : لماذا ؟ قال : قد سبيت لبى وأخذت بمجامع قلبى . قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبداً . قال : أتزوجك . قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك . قال : أتنصر . قالت : إن فعلت أفعل ، فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم فى الدار . فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه ، فمات فلم يظفر بها ، وفاته دينه .

وقال : ويروى أن رجلا علق شخصاً ، فاشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه ، حتى وقع ألماً به ولزم الفراش بسببه ، وتمنع ذلك الشخص عليه ، واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده ، فأخبره بذلك الناس . ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه ، وجعل ينتظره للميعاد الذى ضرب له فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعى بينهما ، فقال : إنه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع ، ورغبت إليه وكلمته ، فقال : إنه ذكرنى وفرح بى ، ولا أدخل مدخل الريبة ، ولا أعرض نفسى لمواقع التهم ، فعاودته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس أسقط فى يده ، وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت عليه علائم الموت ، فجعل يقول فى تلك الحال :

أسلم يا راحة العليل ويا شفا المدنف النحيل
رضاك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يا فلان اتق الله ، قال : قد كان ، فقمت عنه ، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت ، فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

وقد اختلف الناس : هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنى أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعة ابن أبى عبد الرحمن ، ومالك وإسحاق بن راهويه ، والإمام أحمد فى أصح الروايتين عنه — والشافعى فى أحد قوليه — إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبة القتل على كل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى ، وقتادة والأوزاعى ، والشافعى — فى ظاهر مذهبه — والإمام أحمد ، فى الرواية الثانية عنه — وأبو يوسف ومحمد — إلى أن عقوبة الزنى سواء .

وذهب الحاكم وأبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى هى التعزير .

قالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقدّر الله ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حداً مقدراً ، فكان فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : ولأنه وطىء فى محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم ، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان وغيرها .

قالوا : ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ، فلا يدخل فى النصوص الدالة على حد الزانين .

قالوا : وقد رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبعياً اكتفى بذلك الوازع من الحد ، وإذا كان فى الطباع تقاضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها ، ولهذا جعل الحد فى الزنى والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : وطرد هذا ، أنه لا حد فى وطء البهيمة ولا الميتة ، وقيل جبل الله

سبحانه الطباع على النفرة من وطء الرجل (رجلا) مثله أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه ، بخلاف الزنى ، فإن الداعى فيه من الجانبين .

قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحقت المرأتان ، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى .

قال أصحاب القول الأول - وهو جمهور الأمة ، وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة : ليس فى المعاصى أعظم مفسدة من هذه المفسدة ، وهى تلى مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

قالوا : ولم يبتل الله سبحانه بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً غيرهم ، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك ، وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء ، فنكل بهم نكالا لم ينكله أمة سواهم ، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليهم ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها ، خشية نزول العذاب على أهلها ، فيصيبهم معهم ، وتعج الأرض [1] إلى ربها تبارك وتعالى ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فإنه إذا وطئه قتله قتلا لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله ، فإنه مظلوم شهيد أو ربما ينتفع به فى آخرته .

قالوا : والدليل على هذا : أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولى ، إن شاء قتل وإن شاء عفا ، وحتم قتل اللوطى حداً ، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أى ترفع صوتها بالشكوى .

الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد « أنه وجد فى بعض ضواحى العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضى الله عنهم ، فكان على بن أبي طالب أشدهم قولا فيه ، فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة ، وقد علمتم ما فعل الله بها ، أرى أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه » .

وقال عبد الله بن عباس « ينظر أعلى بناء فى القرية فيرمى اللوطى منها منكباً ثم يتبع بالحجارة » وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله قوم لوط ، وابن عباس هو الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن ، وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث ، وإسناده على شرط البخارى .

قالوا : وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله من عمِل عمَل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » . ولم يجئ عنه صلى الله عليه وسلم لعنة الزانى ثلاث مرات فى حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر ، فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة ، وكرر لعن اللوطية ، وأكده ثلاث مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله ، لم يختلف فيه منهم رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله ، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم فى قتله ، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة ، وهى بينهم مسألة إجماع ، لا مسألة نزاع .

قالوا : ومن تأمل قوله سبحانه ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ [الإسراء : ٣٢] . وقوله فى اللواط ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من

أحد من العالمين ؟ ﴾ [الأعراف : ٨٠] . تبين له تفاوت ما بينهما ، وأنه سبحانه أنكر الفاحشة فى الزنى . أى هو فاحشة من الفواحش ، وعرفها فى اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد ، أى أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد ، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها ، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ [الشعراء : ١٩] أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع ، وتنفر منه الطباع أشد نفرة ، وهو إتيان الرجل رجلا مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال ﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾ [الأعراف : ٨١] . ثم نبه على استغنائهم عن ذلك . وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى ، من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها ، وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات ، وتحصين المرأة وقضاء وطرها ، وحصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء [1] ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبى صلى الله عليه وسلم الأنبياء بأمته ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح ، والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله ، وتربى عليه بما لا يمكن حصر فساده ، ولا يعلم تفصيله إلا الله .

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ،

---

(١) فى نسخة : « وقيام النساء على الرجال » .

وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور ، وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر ، وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء . ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وكذلك قلوبهم ، ونكسوا فى العذاب على رءوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد ، فقال : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ [الأعراف : ٨١] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه فى الزنى ؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ [الأنبياء : ٧٤] ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح فقال ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ [الأنبياء : ٧٤] وسماهم مفسدين فى قول نبيهم ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ [العنكبوت : ٣٠] وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لإبراهيم : ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ [العنكبوت : ٣١] . فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات ، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ [هود : ٧٦] .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف ، هم من أحسن البشر صوراً ، فأقبل اللوطية إليه يهرولون. فلما رآهم قال لهم ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ [هود : ٧٨] ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن ، خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد . فقال : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ ﴾ . فردوا عليه ، ولكن رد جبار عنيد ﴿ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ [هود : ٧٩] . فنفث نبى الله نفثة مصدور ، خرجت من قلب مكروب ، فقال ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ؟ ﴾

فنفس له رسل الله ، وكشفوا له عن حقيقة الحال ، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم ، ولا إليه بسببهم ، فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم ، وهون عليك ، فقالوا ﴿ يا لوط إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ﴾ وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا ﴿ فأسْرِ بأهلك بقِطَعٍ من الليل[1] ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتَك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ ﴾ [هود : ٨١] فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم وقال : أريد أعجل من هذا ، فقالت الملائكة ﴿ أليس الصبح بقريب ؟ ﴾ . فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر ، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها ، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذى لا يرد عن الرب الجليل ، إلى عبده ورسوله جبرائيل ، بأن قلبها عليهم كما أخبر به فى محكم التنزيل ، فقال عز من قائل ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾[2]. [الحجر : ٧٤] فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ، ونكالا وسلفاً لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين ، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لبسبيل مقيم ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ [الحجر : ٧٥ — ٧٧] أخذهم على غرة وهم نائمون ، وجاءهم بأسه وهم فى سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فقلبت تلك اللذات آلاماً ، فأصبحوا بها يعذبون .

مآرب كانت فى الحياة لأهلها   عِذاباً فصارت فى المماتِ عَذاباً[3]

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، وانقضت الشهوات ، وأورثت الشقوات ، تمتعوا قليلا ، وعذبوا طويلا ، رتعوا مرتعاً وخيا ، فأعقبهم عذاباً

---

(١) القطع — بكسر وسكون الطاء — ظلمة آخر الليل .

(٢) هو طين محمى فى نار جهنم .

(٣) عذاب الأول بكسر العين من العذوبة وهى الحلاوة ، وعذاب الثانية بفتح العين بمعنى العقوبة .

أليما ، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين ، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين ، فندموا والله أشدّ الندامة حين لا ينفع الندم ، وبكوا على ما أسلفوه بدَل الدموع بالدم ، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ، سواءٌ عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ [الطور : ١٦] ولقد قرب الله مسافة العذاب بين هذه الأُمة وبين إخوانهم فى العمل ، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ [هود : ٨٣] .

فيا ناكحى الذكران يهنيكم البشرى ... فيوم معاد الناس إن لكم أجـرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا ... فإن لكم زفاً إلى الجنـة الحمرا
فإخوانكم ، قـد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا إلينا ، عجلوا ، لكم البشرى
وها نحن أسـلاف لكم فى انتظاركم ... سيجمعنا الجبار فى ناره الكبرى
فلا تحسبوا أن الذين نكحتمـوا ... يغيبون عنكم ، بل ترونهم جهراً
ويلعن كـلا منـكما لخليلـه ... ويشقى به المحزون فى الكرة الأُخرى
يعـذب كلا منهما بشريـكه ... كما اشتركا فى لذة توجب الوزرا

فصل

فى الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى .

أما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً ، فجوابه من وجوه :

أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً ، وما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما شرعه عن الله ، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع

فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

والثانى : أن هذا ينتقض بالزجم ، فإنه ثبت بالسنة .

فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقى حكمه .

قلنا : فينتقض عليكم بحد شارب الخمر .

والثالث : أن نفى دليل معين لا يستلزم نفى مطلق الدليل ولا نفى المدلول ، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير منتف ؟ .

وأما قولكم : إنه وطء فى محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة ، فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار ، مردود بسنة رسول الله وإجماع الصحابة . كما تقدم بيانه .

والثانى : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى فتنته تربو على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس ، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة أو سبى ذلك عقل عاشق ، أو أسر قلبه ، أو استولى على فكره ونفسه ، فليس فى القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت ، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود – فى أحد القولين – وهو القتل بكل حال محصناً كان أو غير محصن ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث .

وقد روى أبو داود والترمذى من حديث البراء بن عازب قال « لقيت عمى ومعه الراية ، فقلت : إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله » . قال الترمذى :

هذا حديث حسن ، قال الجوزجانى عم البراء اسمه : الحارث بن عمرو .

وفى سنن أبى داود وابن ماجة من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » .

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها ، فقال : احبسوه وسلوا من هاهنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل فى المسألة ، وأن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل ، دليله : من وقع على أمه أو ابنته ، كذلك يقال فى وطء ذوات المحارم ، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال ، فكان حده القتل كاللوطى .

والتحقيق : أن يستدل على المسألتين بالنص ، والقياس يشهد لصحة كل منهما ، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعايه الحد ، وإنما اختلفوا فى صفة الحد ، هل هو القتل بكل حال ، أو حده حد الزانى ؟ على قولين :

فذهب الشافعى ومالك وأحمد — فى إحدى روايتيه — أن حده حد الزانى .

وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال

وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد، إلا أبا حنيفة وحده ، فإنه رأى ذلك شبهة مسقطة للحد .

ومنازعوه يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة . فإنه ارتكب محذورين عظيمين : محذور العقد ، ومحذور الوطء ، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنى ؟ .

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء ، وهما فى مذهب أحمد وغيره :

أحدهما : يجب به الحد ، وهو قول الأوزاعى ، فإن فعله أعظم جرماً وأكبر ذنباً انضم إلى فاحشته هتك حرمة الميتة .

فصل

وأما واطىء البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يؤدب ، ولا حد عليه ، وهذا قول مالك وأبى حنيفة والشافعى فى أحد قوليه ، وهو قول إسحاق .

والقول الثانى : حكمه حكم الزانى ، يجلد إن كان بكراً ، ويرجم إن كان محصناً ، وهذا قول الحسن .

والقول الثالث : أن حكمه حكم اللوطى ، نص عليه أحمد ، فيخرج على الروايتين فى حده ، هل هو القتل حتما أو هو كالزانى ؟ .

والذين قالوا « حده القتل » احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه » .

قالوا : ولأنه وطء لا يباح بحال ، فكان فيه القتل كحد اللوطى . ومن لم ير عليه حداً قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به ، ولم يحل لنا مخالفته .

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجى : سألت أحمد عن الذى يأتى البهيمة ، فوقف عندها ، ولم يثبت حديث عمرو بن أبى عمرو فى ذلك .

وقال الطحاوى : الحديث ضعيف ، وأيضاً فراويه ابن عباس ، وقد أفتى بأنه لا حد عليه ، قال أبو داود : وهذا يضعف الحديث .

ولا ريب أن الزاجر الطبعى عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى عن التلوط ، وليس الأمر أنهما فى طباع الناس سواء ، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم .

فصل

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على تدالك المرأتين [١] ، فمن أفسد القياس ، إذ لا إيلاج هناك ، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج ، على أنه قد جاء فى بعض الآثار المرفوعة[٢] « إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» ولكن لا يجب الحد بذلك ، لعدم الإيلاج ، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام ، كزنى العين واليد والرجل والفم .

إذا ثبت هذا : فقد أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ [الحج : ٤] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر ، يستتاب كما يستتاب المرتد ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره فى الإثم والحكم .

فصل

فإن قيل : فهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال ؟ ورقية لهذا السحر القتال ؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال ؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق ؟ وهل يمكن السكران بخمر الهوى أن يفيق ؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه ؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه من سويدائه ؟ إن لامه لائم التذ بملامه ذكراً لمحبوبه وإن عذله عاذل أغراه عذله وسار به فى طريق مطلوبه ، ينادى شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بى حيث أنت ، فليس لى ... متأخَّر عنه ولا متقــدَّم
وأهنتنى ، فأهنت نفسى جاهــداً ... ما من يهون عليك ممن يــكرم

---

(١) فى نسخة : « هل سحاق المرأتين » وهما بمعنى واحد .
(٢) فى نسخة : « فى بعض الأحاديث المرفوعة » .

أشبهت أعدائى ، فصرت أحبهم   إذ كان حظى منك حظى منهم
أجـد الملامة فى هواك لذيــــذة   حباً لذكرك ، فليلمنى اللــــوم

ولعل هٰذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء والداء الذى طلب له الدواء .

قيل : نعم ، الجواب من رأس« ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء ، علمة من علمه وجهله من جهله » . والكلام فى دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية من طريقين :

أحدهما : حسم مادته قبل حصولها .

والثانى : قلعها بعد نزوله ، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ، ومتعذر على من لم يعنه الله ، فإن أزمّة الأمور بيديه .

فأما الطريق المانع من حصول هٰذا الدواء ، فأمران :

أحدهما : غض البصر كما تقدم ، فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته ، وفى غض البصر عدة منافع :

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده ، فليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى ، وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضبييع أوامره .

الثانية : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم - الذى لعل فيه هلاكه - إلى قلبه .

الثالثة : أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية عليه ، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ، ويبعده من الله ، وليس على القلب شىء أضر من إطلاق البصر ، فإنه يورث الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابعة : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامسة : أنه يلبس القلب نورًا ، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، قال ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ ، [النور : ٣٠] ثم قال إثر ذٰلك ﴿ الله نور السمٰوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ ، [النور : ٣٥] أى مثل فى نوره قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدع ، وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة ، فإن ذٰلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب ، فإذا نفد ذٰلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادسة : أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، وكان شجاع الكرمانى يقول : من عمّر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشبهات ، واغتذى بالحلال ، لم تخطئْ له فراسة ، وكان شجاع هٰذا لا تخطئْ له فراسة .

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، ومن ترك لله شيئا عوضه الله خيرًا منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبس بصره لله ، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب ، وضد هٰذا ما وصف الله به اللوطيين من العمَه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ ، [الحِجْر : ٧٢] فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل ، والعمه الذى هو فساد البصيرة ، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمه البصيرة وسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة ومتى من به إفاقة سـكران ؟

وقال الآخر :

قالوا : جننت بمن تهوى ؟ فقلت لهم : العشـق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى الحين

السابعة : أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة ، فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة وسلطان القدرة والقوة ، كما فى الأثر « الذى يخالف هواه يَفْرَقُ (١) الشيطان من ظله » وضد هذا تجد فى المتبع لهواه – من ذل النفس ووضاعاتها ومهانتها وخستها وحقارتها – ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه ، كما قال الحسن : « إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية فى رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه » وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾، [المنافقون : ٨] وقال تعالى﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَوْن إن كنتم مؤمنين ﴾ ، [آل عمران : ١٣٩] والإيمان قول وعمل ، ظاهر وباطن ، وقال تعالى﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكَلِمُ الطيِّب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، [فاطر : ١٠] أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح ، وفى دعاء القنوت « إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت » ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، وله من العز بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وله من الذل بحسب معصيته .

الثامنة : أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب ، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء فى المكان الخالى ، فيمثل له صورة

---

(١) يفرق : يخاف .

المنظور إليه . ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يَعِدُه ويمنيه ويُوقد على القلب نار الشهوة . ويلقى عليها حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب فى اللهب ، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار ، وتلك الزفرات والحرقات ، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب ، فهو فى وسطها كالشاة فى وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة : أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم ، كما أراه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فى المنام فى الحديث المتفق على صحته .

التاسعة : أنه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها ، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه ، فينفرط عليه أمره ، ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبَه عن ذِكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا ﴾ ، [الكهف : ٢٨] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشرة : أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر ، وأن يصلح بصلاحه ، ويفسد بفساده ، فإذا فسد القلب فسد النظر ، وإذا فسد النظر فسد القلب ، وكذلك فى جانب الصلاح ، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات ، والقاذورات والأوساخ ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأُنس به والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك .

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ما وراءها .

الطريق الثانى المانع من حصول تعلق القلب : اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ، ويحول بينه وبين الوقوع فيه ، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج ،

فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هٰذا المحبوب ، أو بخوف ما حصوله أضر من فوات هٰذا المحبوب ، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هٰذا المحبوب ، وفواته أضر عليه من فوات هٰذا المحبوب ، لم يجد بدًا من عشق الصور .

وشرح هذا : أن النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هٰذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه .

أحدهما : بصيرة صحية يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه ، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما ، وهٰذا خاصة العقل ، ولا يعد عاقلا من كان بضد ذٰلك ، بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه .

الثاني : قوة عزم وصبر يتمكن به من هٰذا الفعل والترك ، فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت ، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على أشياء لا تنفع ، أمن خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ، ومثل هٰذا لا ينتفع به غيره ، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين ، فقال تعالى، وبقوله يهتدى المهتدون منهم ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤] وهٰذا هو الذى ينتفع بعلمه ، وينتفع به الناس ، وضده لا ينتفع بعلمه ، ولا ينتفع به غيره ، ومن الناس من ينتفع بعلمه فى نفسه ولا ينتفع به غيره ، فالأول يمشى فى نوره ويمشى الناس فى نوره ، والثانى قد طفئ نوره ، فهو يمشى فى الظلمات ومن تبعه فى ظلمته ، والثالث يمشى فى نوره وحده .

فصل

إذا عُرفت هٰذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع للقلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدًا ، بل هما ضدان لا يتلاقيان . بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه ، فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذٰلك عن محبة ما سواه ، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله ، أو لكونه وسيلة له إلى محبته ، أو قاطعًا له عما يضاد محبته وينقصها ، والمحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب ، وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته ، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره فى محبته ، ويمقته لذلك ، ويبعده ولا يحظيه بقربه ، ويعده كاذبًا فى دعوى محبته ، مع أنه ليس أهلا لصرف كل قوة المحبة إليه ، فكيف بالحبيب الأعلى الذى لاتنبغى المحبة إلا له وحده ، وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال ؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هٰذه المحبة ، ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء .

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها ، بل تفوت محبة ماليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده ، فليختر العبد إحدى المحبتين ، فإنهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره ، فيعذبه بها فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة ، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان ، أو بمحبة الصلبان ، أو المردان ، أو بمحبة النسوان ، أو محبة العشراء والإخوان ، أو محبة ما دون ذٰلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان ، فالإنسان عبد محبوبه كائنًا من كان ، كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته ‌ ‌ ‌ ‌ فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلٰهه مالكه ومولاه كان إلٰهه هواه ، قال تعالى ﴿ أفرأيت من

اتخذ إلٰهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴾ [الجاثية : ٢٣]

فصل

وخاصية التعبد : الحب مع الخضوع ، والذل للمحبوب ، فمن أحب محبوباً وخضع له فقد تعبد قلبه له ، بل التعبد أحد مراتب الحب ، ويقال له : التتيم أيضًا ، فإن أول مراتبه العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب ، قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهى ذات تمائم [1] ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالثغام المخلس[2]

ثم بعدها الصبابة ، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب ، قال الشاعر :

تشكّى المحبون الصبابة ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

ثم الغرام ، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ، ومنه سمى الغريم غريماً ، لملازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى ﴿ إن عذابها كان غرامًا ﴾ [الفرقان : ٦٥] وقد أولع المتأخرون باستعمال هٰذا اللفظ فى الحب ، وقل أن تجده فى أشعار العرب ، ثم العشق وهو إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق فى حقه ، ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحثّ السفر ، وقد جاء إطلاقه فى حق الرب تعالى كما فى مسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر

---

(١) جمع تميمة : وهى ما يطلق على الأطفال لمنع الحسد والجن وغيرهما ، ومن ذلك ما يسمى عند العامة اليوم بالحجب التى يكتب فيها الدجالون بعض تعاويذ ، وكان ذلك من عادة أهل الجاهلية لوثنيتهم فإن التمائم ملازمة للوثنية وفساد العقول بالأوهام ، وقد جاء الإسلام بإزالة ذلك ، فى الحديث « التمائم والتولة شرك » .

(٢) الأفنان : جمع فنن ، وأصله الغصن . والثغام : نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به الشيب .

« أنه صلى صلاة فأوجز فيها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبى عليه الصلاة والسلام يدعو بهن : اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى إذا كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى ، اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » وفى أثر آخر « طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا » وهذا هو المعنى الذى عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وقال بعض أهل البصائر فى قوله تعالى ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ ، [العنكبوت : ٥] لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه ، وأن قلوبهم لا تهتدى دون لقائه ، ضرب لهم أجلا وموعدًا للقائه ، تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هى الحياة الطيبة فى الحقيقة ، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، وهى الحياة الطيبة فى قوله تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ ، [النحل : ٩٧] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافًا مضاعفة ، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة ، فهو صادق الوعد الذى لا يخلف وعده وأى حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًا واحدًا فى مرضاة الله ؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التى كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله ، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى

وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولى عليه . وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه ، فإن سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله . وإن سمع فبه يسمع ، وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشى ، وبه يتحرك ، وبه يسكن ، وبه يحيي ، وبه يموت ، وبه يبعث ، كما فى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال « ما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه » .

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهى – الذى حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به – حصر أسباب محبته فى أمرين : أداء فرائضه ، والتقرب إليه بالنوافل .

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل . وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة ، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له .

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه . وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به . وإن مشى مشى به ، فهو فى قلبه ومعه ، وأنيسه وصاحبه ،

فالباء ههنا للمصاحبة ، وهى مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها ، فالمسألة حالية لا علمية محضة .

وإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها، كما قال بعض المحبين :

خيالك فى عينى ، وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى ، فأين تغيب ؟

وقال آخر :

ومن عجب أنى أحن إليهم فأسأل عنهم من لقيت ، وهم معى
وتطلبهم عينى ، وهم فى سوادها ويشتاقهم قلبى ، وهم بين أضلعى

وهذا ألطف من قول الآخر :

إن قلت : غبت ، فقلبى لا يصدقنى إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت ، قال الطرف : ذا كذب فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى إلى المحب من محبوبه ، وربما تمكنت منه المحبة حتى يصير أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قال :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص فى الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل ، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ، ويجلبان إليه الحب والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد بالله وبصره بالله آلات كان محفوظًا فى إدراكه وكان محفوظًا فى حبه وبغضه ، فحفظ فى بطشه ومشيه .

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنه إذا كان إدراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذلك حركة اليد والرجل التى لابد للعبد منهما . فكيف بحركة اللسان التى لا تقع إلا بقصد واختيار ؟ وقد يستغنى العبد عنها إلا حيث أمر بها .

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ورسوله .

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله « كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . ورجله التى يمشى بها » تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده به فى إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله .

وتأمل كيف قال « فبى يسمع ، وبى يبصر » ولم يقل : فلى يسمع ولى يبصر ، وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع ، إذ هى أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله . وذلك أخص من وقوعها به ، وهذا من الوهم والغلط ، إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة ، فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هى بمعونة الله لهم ، وإنما الباء ههنا للمصاحبة ، أى إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه ، كقوله فى الحديث الآخر « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » وهذه هى المعية الخاصة فى قوله تعالى ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ ، [التوبة : ٤٠] وقول النبى « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وقوله تعالى ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ ، [العنكبوت : ٦٩] وقوله ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، [النحل : ١٢٨] وقوله ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ ، [الأنفال : ٤٦] وقوله ﴿ كلا ، إن معى ربى سيهدين ﴾ ، [الشعراء : ٦٢] وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾ ، [طه : ٤٦]

فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعية دون اللام ، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية .

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت عليه المخاوف فى حقه أمانًا ، فبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الهموم ، والغموم والأحزان : فلا هم مع الله ، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه .

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه فى محابه حصلت موافقة الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه ، فقال « ولئن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » أى كما وافقنى فى مرادى بامتثال أوامرى والتقرب إلى بمحابى ، فأنا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسألنى أن أفعله به ويستعيذنى أن يناله ، وقوى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ، لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته ، فمن هذه الجهة يقتضى أن لا يميته ، ولكن مصلحته فى إماتته ، فإنه ما أماته إلا ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليصحه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا منعه إلا ليعطيه ، ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله ، ولم يقل لأبيه (اخرج منها) إلا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ، بل لو كان فى كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده .

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزل

فصل

ثم التتيم ، وهو آخر مراتب الحب ، وهو تعبد المحب لمحبوبه ، يقال :

تيمه الحب ، إذا عبده ، ومنه تيم الله أى عبد الله ، وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم : طريق معبد أى مذلل قد ذللته الأقدام ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هى العبودية ، فلا منزل له أشرف منها .

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه ، وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية فى أشرف مقاماته ، وهى مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدى بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا (١) ﴾ [الجن : ١٩] وقال ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله ﴾ ، [البقرة : ٢٣] وقال ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ [الإسراء : ١] وفى حديث الشفاعة « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له ، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له ، التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه ، قال تعالى ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه : أسلم ، قال أسلمت لرب العٰلمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ ، يا بَنِىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ ، [البقرة : ١٣٠ ــ ١٣٣] ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك وأصل الشرك بالله : الإشراك فى المحبة ، كما قال تعالى ﴿ ومن الناس

---

(١) يقول : كادوا يكونون عليه جماعات فى حرد وشراسة ، متكأكئين عليه بعضها فوق بعض كلبدة الأسد ، وهى شعره المتكاثف المحيط برأسه وعنقه .

من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبًّا لله ﴾ [البقرة : ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندًا يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم .

وقيل : بل المعنى أنهم أشد حبًّا لله ، فإنهم وإن أحبوا الله ، ولكن لما شركوا بينه وبين أندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين والتسويه بينه وبين الأنداد هو فى هذه المحبة ، كما تقدم .

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليًا أو شفيعًا غاية الإنكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالى ﴿ إنَّ ربكم الله الذى خلقَ السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تتذكرون ﴾ ، [يونس : ٣] وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولىٍّ ولا شفيع ، أفلا تتذكرون ؟ ﴾ ، [السجدة : ٤] وقال تعالى ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ﴾ [الأنعام : ٥١] وقال فى الإفراد ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أوَلَو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعًا ﴾ ، [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] وقال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ، ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم ﴾ ، [الجاثية : ١٠] .

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه فى الله ، بخلاف من اتخذ مخلوقًا وليًا من دون الله .

فهذا لون وذاك لون ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق

الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

والمقصود : أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله فى المحبة ، بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ، فإن محبة الرسول – بل تقديمه فى الحب على الأنفس والآباء والأبناء – لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب فى الله ولله ، كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » . وفى لفظ فى الصحيحين « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال – : أن يكون اللهُ ورسولهُ أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وفى الحديث الذى فى السنن « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفى حديث آخر « ما تحابَّ رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه » . فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

فصل

وههنا أربعة أنواع من المحبة ، يجب التفريق بينها ، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها .

أحدها : محبة الله . ولا تكفى وحدها فى النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثانى : محبة ما يحب الله ، وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهى من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهى المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئًا مع الله ، لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذه ندًا من دون الله ، وهذه محبة المشركين

وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه . وهو المحبة الطبيعية ، وهى ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله ، وشغلت عن محبته ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾. [المنافقون : ٩] وقال تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ : [النور : ٣٧] .

فصل

ثم الخُلَّة [١] وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، بحيث لا يبقى فى القلب سعة لغير محبوبه ، وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما ، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد ، كما قال صلى الله عليه وسلم « إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلًا » .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

وفى حديث آخر « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته »

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، وتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه ،

---

(١) الخلة : بضم الخاء ، المحبة التى تخللت أجزاء القلب .

وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانًا ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب ، فلما بادر الخليل إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ، حصل المقصود فرفع الذبح وفدّى الولد بذبح عظيم ، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا ، بل لابد أن يبقى بعضه أو بَدَله كما أبقى شريعة الفداء ، وكما أبقى استحباب الصدقة بينْ يدى المناجاة [1] وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها ، وقال « لا يبدل القول لدىّ ، وهى خمس فى الفعل وهى خمسون فى الأجر » .

وأما ما يظنه بعض الغالطين ، أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله ، فمن جهله ، فإن المحبة عامة والخلة خاصة ، والخلة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر ابن الخطاب وغيرهم .

وأيضًا فإن الله سبحانه ﴿ يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ، [البقرة : ٢٢٢] و ﴿ يحب الصابرين ﴾ ، [آل عمران : ١٤٦] و ﴿ يحب المحسنين ﴾ ، [آل عمران : ١٤٨] و ﴿ يحب المقسطين ﴾ ، [المائدة ٤٢] والشاب التائب حبيب الله ، وخلته خاصة بالخليلين ، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

قد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبة

---

(١) التى كان مأمورًا بها فى قوله تعالى فى سورة المجادلة : ١٢ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ... الخ ﴾

لأقواهما محبة ، كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله ، أو لخلاصه من مكروه .

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما ، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض .

ولا يتم له هذا إلا بأمرين : قوة الإدراك ، وشجاعة القلب ، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك ، بحيث أنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هى عليه ، وإما لضعف فى النفس وعجز فى القلب بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح ، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى ، فقد وفق لأسباب السعادة .

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته ، وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ، ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء : عديم المروة فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له .

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها .

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه ، وهاتان القوتان فى القلب أصل سعادة العبد وشقاوته .

ووجود الفعل الاختيارى لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة .

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه ، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه ، وهذا متعلق الأمر والنهى ، وهو الذى يسمى الكف،

وهو متعلق الثواب والعقاب ، وبهذا يزول الاشتباه فى مسألة الترك وهل هو أمر وجودى أو عدمى ؟ والتحقيق أنه قسمان ، فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمى ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودى .

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحى لما فيه من حصول المنفعة التى يلتذ بحصولها ، أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال ، شفى صدره ، وشفى قلبه ، وقال :

هى الشفاء لدائى لو ظفرت بها   وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم ، ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ، ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظر فى العواقب ، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التى لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف ، وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء .

قال بعض العلماء « فكرت فيما يسعى فيه العقلاء فرأيت سعيهم كله فى مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم فى تحصيله ، رأيتهم جميعهم إنما يسعون فى دفع الهم والغم عن نفوسهم ، فهذا بالأكل والشرب ، وهذا بالتجارة والكتب ، وهذا بالنكاح ، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة ، وهذا باللهو واللعب ، فقلت : هذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه ، بل

لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، ولم أر فى جميع هٰذه الطرق طريقًا موصلة إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شىء فإن سالك هٰذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه ، وإن حصل للعبد حصل له كل شىء ، وإن فاته فاته كل شىء ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنإ الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هٰذه الطريق ، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته ، وبالله التوفيق » .

فصل

والمحبوب قسمان : محبوب لنفسه ، ومحبوب لغيره ، والمحبوب لغيره لابد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه ، دفعًا للتسلسل المحال ، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره ، وليس شىء يُحَب لذاته إلا الله وحده ، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه ، فإنها تبع لمحبته سبحانه ، وهى من لوازم محبته ، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه ، وهٰذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والمحبة التى لا تنفع بل قد تضر .

فاعلم أنه لا يُحَب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها ، وبغضه وكراهته بحسب قوة هٰذه المنافاة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها ، فهٰذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته ، فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذٰلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشىء أحبُّ إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان

أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذٰلك . فتمسك بهٰذا الأصل فى نفسك وفى غيرك ، فالولاية عبارة عن موافقة الولى الحميد فى محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزق ولا رياضة .

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا : أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله ، والثانى : ما يتألم به ولٰكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب ، كشرب الدواء الكريه ، قال تعالى ﴿ كُتب عليكم القتالُ ، وهو كُره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، [البقرة : ٢١٦] .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ، والنفوس تحب الراحة والدعة والرفاهته ، وذٰلك شر لها لإفضائه إلى فوات هٰذا المحبوب ، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها ، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه ، فإن ذٰلك قد يكون شرا له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها ، وإن كانت منقطعة .

فالأمور أربعة : مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه ، فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعى الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعى الترك من وجهين .

بقى القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان — وهما معترك الابتلاء والامتحان — فالنفس تؤثر أقربهما جوارًا منها ، وهو العاجل ، والعقل والإيمان يؤثر أنفعهما وأبقاهما ، والقلب بين الداعيين ، وهو إلى هٰذا مرة ، وإلى هٰذا مرة ، وهٰهنا

محل الابتلاء شرعًا وقدرًا ؛ فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت : حي على الفلاح ، عند الصباح يحمد القوم السُّرَى [1] . وفي الممات يحمد العبد التقي . فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول : يا نفسي اصبري ، فما هي إلا ساعة ثم تنقضي . ويذهب هذا كله ويزول .

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل . فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله . وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة . أو شبهة تمنع كمال التصديق ، فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له . فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر ؛ وإن لم تعارضه قدحت في كماله ، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب ؛ وهي تحجب الواصل . وتقطع الطالب ، وتنكس الراغب ؛ فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة . كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ : [الشعراء : ٧٥ ــ ٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة ؛ فإنه لا ولاء إلا لله ؛ ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه ، قال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ : [الممتحنة : ٤] وقال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ؛ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ :

---

(١) السرى : هو السير ليلا ، وهذا مثل يضرب للمجد الذي لا يسمع لداعي الفتور .

[الزُّخرف : ٢٦ ـ ٢٨] أى جعل هٰذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، وهى كلمة : لا إلٰه إلا الله ، وهى التى وَرَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسمٰوات ، فطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أُسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهى محض حق الله على جميع العباد ، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هٰذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهى المنشور الذى لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهى كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقىٍّ وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهون ، وهى العمود الحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة » .

وروح هٰذه الكلمة وسرها : إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إلٰه غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذٰلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعًا لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا به ، ولا يستغاث فى الشدائد إلا به ، ولا يلتجأُ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه ، ويجتمع ذٰلك فى حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ، فهٰذا هو تحقيق شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، ولهٰذا حرم على النار من شهد أن لا إلٰه إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هٰذه الشهادة وقام

بها ، كما قال تعالى ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ ، [المعارج : ٣٣] فيكون قائماً بشهادته فى ظاهره وباطنه فى قلبه وقالبه ، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب ، وهى فى القلب بمنزلة الروح فى البدن ، فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن ، وفى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا » فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن ن مات على هذه الكلمة فهو فى الجنة يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب فى جنة المأوى وعيشه أطيب عيش ، قال تعالى : ﴿ وأما من خافَ مقامَ ربه ونهى النفسَ عن الهوىٰ ، فإن الجنة هى المأوىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] فالجنة مأواه يوم اللقاء ؟ وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى به وعنه مأوى روحه فى هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه هٰهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا ، والأبرار فى النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا ، والفجار فى جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ﴾ [النحل : ٩٧] ، وطيب الحياة جنة الدنيا ، وقال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدَره ضيقًا حرجًا ﴾ ، [الأنعام : ١٢٥] فأى نعيم أطيب من شرح الصدر ؟ وأى عذاب أمرّ من ضيق الصدر ؟ وقال تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة

الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذٰلك هو الفوز العظيم ﴾ ، [يونس : ٦٢ ــ ٦٤] فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا ، وأنعمهم بالا ، وأشرحهم صدرًا ، وأسرّهم قلبًا ، وهٰذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » . ومن هٰـذا قوله صلى الله عليه وسلم « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » . ومن هٰذا قوله — وقد سألوه عن وصاله [1] فى الصوم — « إنى لست كهيئتكم ، إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقنى » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن ما يحصل له من الغذاء عنـد ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى ، وأن ما يحصل له من ذٰلك أمر يختص به لا يشاركه فيه غيره ، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه ، ويغنى عنه ، كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلهـا   عن الشراب وتلهيها عن الـزاد
لها بوجهـك نـور تستضىء بـه   ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا شكت من كلال السير أوعدها   روح اللقاء ، فتحيا عند ميعاد

وكلما كان وجود الشىء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شىء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذٰلك ، فعدمه آلم شىء له وأشده عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هٰذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره ، واستغراقها فى ذٰلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هى فيه من ألم الفوات بفراق أحب شىء

---

(١) الوصال : هو أن يصوم أياماً من غير أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب لا فطوراً ولا سحوراً ، وهو منهى عنه ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه جعل خاصة له .

إليها وأنفعه لها ، وهٰذه منزلة السكران المستغرق فى سكره الذى احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه فى السكر لا يشعر بـألم ذٰلك الفوات وحسرته ، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر ، فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهٰكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا ، والانتقال منها إلى الله ، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بـأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب فى الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشىء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبته بمالا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها ؟ فلو قضى الله سبحانه (عليه) بالموت من هٰذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به ، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته ، وهٰذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بـأمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره ؟ فتبارك من حمّل هٰذا الخلق الضعيف هٰذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسى .

فاعرض (الآن) على نفسك أعظم محبوب لك فى الدنيا ، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك ، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك ؟ هٰذا ومنه كل عوض ، فكيف بمن لاعوض عنه كما قيل :

من كل شىء إذا ضيعتـــه عوض   وما من الله إن ضيعتـــه عـــوض

وفى أثر إلٰهى « ابن آدم ، خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم ، اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » .

فصل

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة فى القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر فيها فى حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، ومالا تصلح

إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوها ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذلك الإنابة ، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، [المائدة : ٥٤] وقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ ، [البقرة : ١٦٥]

وأعظم أنواع المحبة المذمومة : المحبة مع الله التى يسوى المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذى اتخذه من دونه .

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده ومحبة ما أحب ، وهذه المحبة هى أصل السعادة ورأسها التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، والمحبة المذمومة الشركية هى أصل الشقاوة ورأسها التى لا يبقى فى العذاب إلا أهلها ، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد .

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهى عن المحبة الأخرى ولوازمها ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين ، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منها ، وإخباره عن فعله بالنوعين ، وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، والقرآن جاء فى شأن النوعين .

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم : إنما هى عبادة الله وحده لا شريك له ، المتضمنة لكمال حبه ، وكمال الخضوع والذل له ، والإجلال والتعظيم ، ولوازم ذلك : من الطاعة ، والتقوى .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

وفى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال : والذى بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسى ، قال : الآن يا عمر » فإذا كان هـذا شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه ؟

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره فى قدرها وصفتها ، وإفراده سبحانه بها ، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده ، بل سمعه وبصره ونفسه التى هى بين جنبيه ، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله ، والشىء قد يحبُّ من وجه دون وجه ، وقد يحب بغيره ، وليس شىء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلا له ، و ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ، [الأنبياء : ٢٢] والتأله : هو المحبة والطاعة والخضوع .

فصل

وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة ، فهى علتها الفاعلية والغائية وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع : حركة اختيارية إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية .

والحركة الطبيعية أصلها السكون ، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى ، فهو يتحرك للعود إليه ، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له ، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره ، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه ، وكلا حركتيه تابعة

للقاسر المحرك ، فهو أصل الحركتين .

والحركة الاختيارية الإرادية هى أصل الحركتين الأخريين وهى تابعة للإرادة والمحبة .

والدليل على (انحصار) الحركات فى هذه الثلاث : أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهى الإرادية ، وإن لم يكن له شعور بها ، فإما أن تكون على وفق طبعه أولا ، فالأولى هى الطبيعية ، والثانية القسرية ، إذا ثبت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها ، فإنما هى بواسطة الملائكة المدبرات أمرًا والمقسمات أمرًا ، كما دل على ذلك نصوص من القرآن والسنة فى غير موضع ، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة : فإن الله وكل بالرحم ملائكة ، وبالقطر ملائكة ، وبالنبات ملائكة ، وبالرياح ملائكة وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة ، كاتبين عن يمينه وشماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه ، ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار ، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه ، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره ، وملائكة بتعذيبه فى النار أو نعيمه فى الجنة ، ووكل بالجبال ملائكة ، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها والقيام عليها ، وملائكة بالنار كذلك ، فأعظم جند الله الملائكة ، ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، وليس لهم من الأمر شىء ، بل الأمر كله لله ، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه ، قال تعالى إخبارًا عنهم ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ [مريم : ٦٤] وقال

تعالى ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ [النجم : ٢٦] وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره فى الخليقة كما قال تعالى ﴿ والصّافّات صفًا ، فالزاجرات زجرًا ، فالتاليات ذِكرًا ﴾ ، [الصّافات : ١ — ٣] وقال ﴿ والمرسلات عرفًا ، فالعاصفات عصفًا ، والناشرات نشرًا ، فالفارقات فرقًا ، فالملقيات ذكرًا ، عذرًا أو نذرًا ﴾ ، [المرسلات : ١ — ٦] وقال تعالى ﴿ والنازعات غرقًا ، والناشطات نشطًا ، والسابحات سبحًا ، فالسابقات سبقًا ، فالمدّبرات أمرًا ﴾ [النازعات : ١ — ٥] وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به فى كتاب « التبيان فى أقسام القرآن » .

وإذا عرف ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال هى عبادة منهم لرب الأرض والسموات ، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها : فلولا الحب ما دارت الأفلاك ، ولا تحركت الكواكب النيرات ، ولا هبت الرياح المسخرات ، ولا مرت السحب الحاملات ، ولا تحركت الأجنة فى بطون الأمهات ، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات ، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ، ولا تحركت المدبرات والمقسمات ، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات ، وما فيها من أنواع المخلوقات ، فسبحان من ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفورًا ﴾ ، [الإسراء : ٤٤] .

فصل

فإذا عرف ذلك فكل حى له إرادة ومحبة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده ، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده .

ولهذا قال تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ولم يقل سبحانه : ولكانتا معدومتين ، ولا قال : لعدمتا ، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد ، لما وجدتا لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما ، فلو كان للعالم إلٰهان لفسد نظامه غاية الفساد ، فإن كل إلٰه كان يطلب مغالبة الآخر ، والعلو عليه ، وتفرده دونه بإلٰهيته ، إذ الشركة نقص فى كمال الإلٰهية ، والإلٰه لا يرضىٰ لنفسه أن يكون إلٰهًا ناقصًا فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإلٰه وحده والمقهور ليس بإلٰه ، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ، ولم يكن تام الإلٰهية فيجب أن يكون فوقهما إلٰه قاهر لهما حاكم عليهما ، وإلا ذهب كل منهما بما خلق ، وطلب كل منهما العلو على الآخر ، وفى ذٰلك فساد أمر السمٰوات والأرض ومن فيهما ، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان ، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان ، (والشُّوْل إذا كان فيه فحلان) .

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء ، ولهٰذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه فى زمن من الأزمنة إلا فى زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم ، وانفراد كل منهم ببلاد ، وطلب بعضهم العلو على بعض ، فصلاح السمٰوات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى ، قال الله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه ، إذًا لذهب كل إلٰه بما خلق ، ولَعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ، [المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] وقال تعالى ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله

رب العرش عما يصفون ، لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون ﴾ ، [الأنبياء : ٢١-٢٣] وقال تعالى ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ ، [الإسراء : ٤٢] فقيل ، لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، ويدل عليه قوله فى الآية الأُخرى ﴿ وَلَعَلا بعضُهم على بعض ﴾ .

قال شيخنا رضى الله عنه : والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه وطاعته ، فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدًا له ، قال : ويدل على هذا وجوه :

منها : قوله تعالى ﴿ أُولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ﴾ ، [الإسراء : ٥٧] أى هؤلاء الذين تعبدونهم من دونى هم عبادى كما أنتم عبادى ترجون رحمتى وتخافون عذابى ، فلماذا تعبدونهم من دونى ؟ .

الثانى : أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا . بل قال ﴿ لابتغوا إليه سبيلا ﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل فى التقرب ، كقوله تعالى ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ ، [المائدة : ٣٥] وأما فى المغالبة فإنما يستعمل بعلى ، كقوله ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ ، [النساء : ٣٤] .

الثالث : أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قد قال ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغى التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه ، فقال : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدًا له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ،

نافعة أو ضارة من الوجد ، والذوق ، والحلاوة ، والشوق ، والأُنس ، والاتصال بالمحبوب والقرب منه ، والانفصال عنه والبعد منه ، والصد والهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذٰلك من أحكامها ولوازمها .

والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة الّتى تجلب لصاحبها ما ينفعه فى دنياه وآخرته ، وهٰذه المحبة هى عنوان السعادة ، والضارة هى الّتى تجلب لصاحبها ما يضره فى دنياه وآخرته ، وهى عنوان الشقاوة .

ومعلوم أن الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذٰلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها . وذلك ظلم من الإنسان لنفسه ، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشىء وتحبه غير عالمة بما فى محبته من المضرة ، وهٰذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما فى محبته من الضرر لٰكن تؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب محبتها من أمرين : اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضًا فتنفق [1] شبهة وشهوة ، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعوه إلى حصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان ، والغلبة لأقواهما .

وإذا عرف هٰذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه ، فالمحبة النافعة المحمودة الّتى هى عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له ، فحكمها حكم متبوعها . فإن بكى نفعه ، وإن حزن نفعه ، وإن فرح نفعه ، وإن انقبض نفعه ، وإن انبسط نفعه ، فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وربح وقوة .

(١) نفقت السلعة : أى راجت .

والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه ، كيفما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة وبعد .

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية ، فكل ما تولّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد ، قال تعالى ﴿ ذٰلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخمَصَةٌ (١) فى سبيل الله ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديًا إلا كُتِب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ ، [التوبة : ١٢٠ ، ١٢١] .

فأخبر سبحانه فى الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح ، وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها ، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثانى : نفس أعمالهم فكتب لهم .

فليتأمل قتيل المحبة هٰذا الفصل حق التأمل ، ليعلم ماله وما عليه .

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع ، وعند الوزن ما كان حصلا

فصل

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم ، فهى أصل كل دين سواء أكان حقًا أو باطلا ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذٰلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التى صارت خلقًا وعادة ، ولهٰذا فسر الخلق بالدين فى قوله تعالى

(١) النصب : التعب والعناء ، والمخمصة : شدة الجوع .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، [القلم : ٤] ، قال الإمام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس « لعلى دين عظيم » وسئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » والدين فيه معنى الإذلال والقهر ، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة ، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل ، كما يقال : دنته فدان ، أى قهرته فذل ، قال الشاعر :

هو دان الرباب إذ كرهوا الد ين فأضحـــوا بعزة وصيال

ويكون من الأدنى إلى الأعلى ، كما يقال : دِنت لله ودِنت لله ، وفلان لا يدين الله دينًا ، ولا يدين الله بدين ، فدان الله : أى أطاع الله وأحبه وخافه ، ودان لله : تخشع له وخضع وذل وانقاد .

والدين الباطن لابد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء ، بخلاف الدين الظاهر ، فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر .

وسمى الله سبحانه يوم القيامة (يوم الدين) فإنه اليوم الذى يدين فيه الناس بأعمالهم ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم ، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب .

وقال تعالى ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ ، [الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] أى هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين ، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير ، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم فى إنكارهم البعث والحساب ، ولا بد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله ، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول . لما بينهما من التلازم ، فكل ملزوم دليل على لازمه ، ولا يجب العكس .

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم ،

وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فإما أن يقروا بأن لهم ربًّا قاهرًا متصرفًا فيهم ، كما سيميتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم ، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقروا بربٍّ هٰذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمرى والجزائى ، وإن أنكروه كفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم ، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم ؟ وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر ، وهم يعاينون موته : أى فهلا تردون الروح إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر ، تمضى عليكم أحكامه ، وتنفذ أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم ، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيالها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ، ووحدانيته ، وتصرفه فى عباده ، ونفوذ أحكامه فيهم ، وجريانها عليهم .

والدين دينان . دين شرعى أمرى ، ودين حسابى جزائى . وكلاهما لله وحده ، فالدين كله لله أمرًا أو جزاء ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإن ما شرعه سبحانه وتعالى وأمر به فإنه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه ، فهو يحب ضده ، فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً » فهٰذا الدين قائم ، بالمحبة وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها أسس . وكذٰلك دينه الجزائى فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله ، وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته

وأسماءه ، ويحب من يحبها ، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه . كما قال تعالى إخبارًا عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه ﴿ إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ ، [هود : ٥٤ ــ ٥٦] .

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج فى ذٰلك عن موجب كماله المقدس ، الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل ، والحكمة والرحمة ، والإحسان ، والفضل . ووضع الثواب موضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذٰلك كمال الحمد والثناء ــ أوجب له ذٰلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رءوس الملإ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾ [هود : ٥٤ ــ ٥٦] .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه ، وذل كل شيء لعظمته ، فقال : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾ ، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره ، وهو فى قهره وقبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ؟ وهل هٰذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم : فى كل ما يقضيه ويقدره ،

فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره وظلمه ، فإنه على صراط مستقيم ، فهو سبحانه ماض فى عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، لا يخرج فى تصرفه فى عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته ، وهو على صراط مستقيم فى هٰذا وهذا .

وفى الحديث الصحيح « ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى . إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجًا ، قالوا : يا رسول الله ، ألا نتعلمهن ؟ قال : بلى ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » وهٰذا يتناول حكم الرب الكونى والأمرى وقضاءه الذى يكون باختيار العبد وغير اختياره ، وكلا الحكمين ماض فى عبده ، وكلا القضاءين عدل فيه ، فهٰذا الحديث مشتق من هٰذه الآية ، بينهما أقرب نسب .

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم ، وكما سنقرره أيضًا إن شاء الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هٰذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية

والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله ، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع ، وكان الداعى ها هنا فى غاية القوة ، وذلك من وجوه :

أحدها : ما ركبه الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالا ، بل يحمد كما فى كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البنانى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم « حُبب إلىَّ من دنياكم النساء، والطيب أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » .

الثانى : أن يوسف عليه السلام كان شابًا ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزبا ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة .

الرابع : أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى له فى وطنه بين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا أبية ، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبًا ، كما قال الشاعر :

وزادنى كلفًا فى الحب أنْ منعت أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة ، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها ، وأخبرنى بعض القضاة أن إرادته وشهوته

تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما مُنِع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، اللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها فاله ، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة الراغبة ، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقًا على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنى ؟ قالت : قرب الوساد وطول السرار ، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السرار بيننا .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ . [يوسف : ٣٣] .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصَّغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوه ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف ﴿ أعرض عن هٰذا ﴾ وللمرأة ﴿ استغفرى لذنبك ، إنك كنتِ من الخاطئين ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهٰذا لم يظهر منه غيرة .

ومع هٰذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ﴿ قال رب السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه ﴾ ، [يوسف : ٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذٰلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهٰذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

وفى هٰذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة ، لعلنا إن وفق الله أن نفردها فى مصنف مستقل .

فصل

والطائفة الثانية ، الذين حكى الله عنهم العشق : هم للوطية ، كما قال تعالى ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون ، قالوا : أو لم ننهك عن العالمين ؟ قال : هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ ، [الحِجْر : ٦٧ - ٧٢] فهٰذه الأمة عشقت . فحكاه سبحانه عن طائفتين ، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ، ولم يبال بما فى عشقه من الضرر .

وهٰذا داء أعيا الأطباء دواؤه ، وعز عليهم شفاؤه ، وهو لعمر الله الداء العضال ، والسم القتال الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى خلاصه من إساره ، ولا اشتعلت ناره فى مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره ، وهو أقسام :

تارة يكون كفرًا ، كمن اتخذ معشوقه ندًا ، يحبه كما يحب الله ، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه ؟ فهٰذا عشق لا يغفر لصاحبه ، فإنه من أعظم الشرك . والله لا يغفر أن يشرك به ، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذٰلك ، وعلامة هٰذا العشق الشركى الكفرى : أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه ، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه وحق ربه وطاعته ، قدم حق معشوقه على حق ربه ، وآثر رضاه على رضاه ، وبذل له أنفس ما يقدر عليه ، وبذل لربه — إن بذل — أردأ ما عنده . واستفرغ وسعه فى مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه ، وجعل لربه — إن أطاعه — الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذٰلك ، ثم ضع حالهم فى كفة ، وتوحيدهم وإيمانهم فى كفة ، ثم زن وزنًا يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل ، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه ، كما قال العاشق الخبيث (١) .

يترشّفنَ من فمى رشفــــات هنَّ أحلى فيه من التوحيــد

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصله أشهى إليه من رحمة ربه وقد مر .

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة ، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبدًا محضًا من كل وجه لمعشوقه : فقد رضى هٰذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله ، فإن العبودية هى كمال الحب والخضوع ، وهٰذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية .

---

(١) البيت للمتنبى ، وهو ما أخذ عليه ، ويقال : التوحيد : ضرب من جيد التمر .

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إلىَّ من أن ابتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله .

فصل

ودواءُ هذا الداء القتال : أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد للتوحيد (إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله ، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولا [1]) ، ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه ، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه فى صرف ذلك عنه ، وأن يراجع بقلبه إليه ، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله ، وهو الدواء الذى ذكره الله فى كتابه حيث قال ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ، [يوسف : ٢٤] .

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه ، فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور ، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ ، كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة ، وجب عليه أمران : أمر علمى وأمر عملى ، فالعلمى طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له .

---

(١) هذه الزيادة ساقطة من نسخة مخطوطة ، ونرى أنه لابد منها .

ومن المعلوم أنه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه :

أحدها : الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر ، ويكون السلطان والغلبة له .

والثانى : عذاب قلبه به ، فإن منْ أَحَبّ شيئًا غيرَ الله عُذِّب به ولا بد . كما قيل :

فما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تـراه باكيا فى كل حين ... مخافة فرقـة أو لاشتيـاق
فيبكى إن نأوا شـوقًا إليهم ... ويبكى إن دَنَـو حذر الفراق
فتسخن عينـه عنـد الفراق ... وتسخن عينـه عند التـلاق

والعشق ، وإن استعذبه صاحبه ، فهو من أعظم عذاب القلب .

الثالث : أن قلبه أسير فى قبضة غيره يسومه الهوان ، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه ، فقلبه كعصفورة فى كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب ، كما قال بعض هؤلاء :

ملكت فؤادى بالقطيعة والجفا ... وأنت خلىّ البال تلهـو وتلعب
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق ... وعيش الخلى عيش المسيب المطلق
طليق برأى العين وهو أسير ... عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرى فى صورة الحى غاديا ... وليس له حتى النشور نشـور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبـه ... فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه ، فليس شىء أضيع لمصالح

الدين والدنيا من عشق الصور ، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله ، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له ، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين ، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه ، فمصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب ، وسبب ذلك : أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله . فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور ، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات ، وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولى عليه ، لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله ، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده ، وبعد منه وليه ، ومن لاسعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ؟

السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوسواس ، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها ، وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها مشاهد بالعيان ، وأشرف ما في الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات ، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك ؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره ، كما قيل :

قالوا : جننتَ بمن تهوى ، فقلت لهم : العشـــق أعظم ممـا بالمجانين
العشق لا يستفيـق الدهـر صاحبه وإنما يُصرع المجنـون في الحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها ، إما إفسادًا معنويًا أو صوريًا ، أما الفساد المعنوى فهو تابع لفساد القلب ، فإن القلب إذا فسد فسدت العين

والأُذن واللسان ، فيرى القبيح حسنًا منه ومن معشوقه كما فى المسند مرفوعًا « حبك الشىء يعمى ويصم » فهو يعمى عين القلب عن رؤية مساوى المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذٰلك ، ويصم أُذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه ، فلا تسمع الأُذن ذٰلك ، والرغبات تستر العيوب ، فالراغب فى الشىء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه ، فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشىء على ما هو به ، كما قيل :

هويتك إذ عينى عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسى أَلومها

والداخل فى الشىء لا يرى عيوبه ، والخارج منه الذى لم يدخل فيه لايرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه ، ولهٰذا كان الصحابة الذين دخلوا فى الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا فى الإسلام .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

وأَما فساد الحواس ظاهرًا فإنه يُمرض البدن وينهكه ، وربما أَدى إلى تلفه ، كما هو المعروف من أَخبار من قتلهم العشق .

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد لحماً (١) على عظم ، فقال : ما شأْن هٰذا ؟ قالوا : به العشق ، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه .

الثامن : أَن العشق كما تقدم هو الإفراط فى المحبة ، بحيث يستولى المعشوق على قلب العاشق ، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه ، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه ، فعند ذٰلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية

---

(١) كذا ، ولعل الأصل « جلداً على عظم » .

والنفسانية فتتعطل تلك القوة ، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر ، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ، ويختل جميع ذلك ، فتعجز البشر عن صلاحه ، كما قيل :

الحب أول ما يكون لجاجة يأتى بها وتسوقه الأقـــدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى جاءت أمـور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة ، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب وقتل ، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى ، كما قيل :

وعش خاليًا فالحب أوله عَنًى وأوسطه سقم ، وآخـره قتل

وقال الآخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقــل به لم يطق
رأى لجــة ظنها موجة فلما تمكن منها غــرق

والذنب له ، فهو الجانى على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » (١) .

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات : مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء .

فأما مقام ابتدائه ، قالوا : يجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرًا قدرًا وشرعًا ، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه — وهذا مقام التوسط والانتهاء — فعليه كتمان ذلك ، وأن لا يفشيه إلى الخلق ، ولا يشمت بمحبوبه ويهتكه بين الناس ، فيجمع بين الشرك والظلم ،

(١) هذا مثل ، وأصله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبر على زق قد نفخه ، فلم يحسن إحكامه ، حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق ، فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له « يداك أوكتا وفوك نفخ » يضرب لمن يجنى على نفسه ، وأوكى القربة : أى ربطها .

فإن الظلم في هٰذا الباب من أعظم أنواع الظلم ، وربما أعظم ضررًا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله ، فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب ، وأكثر الناس يصدق في هٰذا الباب بأدنى شبهة ، وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانه كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون ، وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هٰذا الباب يفيد القطع اليقيني ، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبًا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزمًا لا يحتمل النقيض ، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقًا لجزموا أن ذٰلك عن وعد واتفاق بينهما ، وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبه والأوهام (والأخبار) الكاذبة ، كجزمهم بالحسيات المشاهدة ، وبذٰلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات : بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر ، حتى هلك من هلك ، ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمرًا آخر .

والمقصود : أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله ، وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه ، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر ، وصار ذٰلك الواسطة ديوثًا ظالمًا ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الرائش – وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة – فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل ، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أو عرض ؟ فإنه كثيرًا ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه ، وكم من قتيل طُلَّ دمه [1] بهذا السبب من زوج وسيد وقريب ، وكم

(١) طل دمه : أى هدر ، فلم يقتص به ولم تؤخذ له دية .

خَبَّبَتْ [١] امرأة على بعلها وجارية وعبد سيدهما ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذٰلك وتبرأ منه ، وهو من أكبر الكبائر ، وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو أن يستام على سوم أخيه ، فكيف بمن يسعى فى التفريق بين رجل وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما ؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الدَّيايثة [٢] لا يرون ذٰلك ذنبًا ، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ، فنى ذٰلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة ، إن لم يربُ عليها ، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة ، فإن من ظلم الوالد إفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه فظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه ، أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ، ولهٰذا يؤذيه ذٰلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله ، ولا يعدل ذٰلك عنده إلا سفك دمه ، فياله من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة ، فإن كان ذٰلك حقًّا لغازٍ فى سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة ، وقيل له « خذ من حسناته ما شئت » كما أخبر بذٰلك النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم « فما ظنكم ؟ » أى فما تظنون يبقى له من حسناته ؟ فإن انضاف إلى ذٰلك أن يكون المظلوم جارًا ، أو ذا رحم محرم ، تعدد الظلم فصار ظلمًا مؤكدًا لقطيعة الرحم وإيذاء الجار ، ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه [٣] .

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين من الجن — إما بسحر

---

(١) خبب المرأة على زوجها . ما زال يخدعها ويغويها حتى أفسدها عليه .

(٢) الديايثة — بفتح الدال والياء — جمع ديوث .

(٣) أى غوائله وشروره ، جمع بائقة وهى فى الأصل الداهية .

أو استخدام أو نحو ذلك - ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر ، فإن لم يفعله هو ورضى به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده ، وهذا ليس ببعيد من الكفر .

والمقصود : أن التعاون فى هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان .

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فأمر لا يخفى ، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أغراض أُخر يريد من العاشق إعانته عليها ، فلا يجد من إعانته بداً ، فبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان ، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه ، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التى فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم ، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين ، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه من ظلم وعدوان وبغى ، حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله ، وفى تحصيل مال من غير حله ، وفى استطالته على غيره ، فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً ، هذا إلى ما ينضم إلى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم ، والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أن يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك ، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التى حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه .

فكل هذه الافات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور ، وربما حمل على الكفر الصريح ، وقد تنصر جماعة ممن نشئوا فى الإسلام بسبب العشق ، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح ، فتن بها ونزل

ودخل عليها وسألها نفسها فقالت : هى نصرانية فإن دخلتَ فى دينى تزوجت بك ، ففعل ، فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم ، فسقط منها ، فمات ، ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له .

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها ، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل فى دينها ، فهنالك ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ﴾ ، [إبراهيم : ٢٧]

وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وظلمه لنفسه (ما فيه) وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه ، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك ، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها ، والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف ، وذلك ظلم منه ، بأن يطمعه فى نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه ، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه ، فهو يسومه سوء العذاب ، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره ، فكم للعشق من قتيل من الجانبين ، وكم قد أزال من نعمة ، وأفقر من غنى ، وأسقط من مرتبة ، وشتت من شمل ، وكم أفسد من أهل للرجل وولده ، فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقًا لغيرها اتخذت هى معشوقًا لنفسها ، فيصير الرجل مترددًا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ، ومنهم من يؤثر هذا .

على العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها ، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها ، فإذا هلكت فهو الذى أهلكها ، فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه فى

وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه ، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع ، فإن لم يقارنه طمع فى الوصال وقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق ، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذلك ، فإن أطال مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله ، إما خوف دينى ، كدخول النار ، وغضب الجبار واحتقاب [1] الأوزار ، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له ذلك العشق ، فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوى كخوف إتلاف نفسه أو ماله أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس ، وسقوطه من عين من يعز عليه ، وغلب هذا الخوف لداعى العشق دفعه ، وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق ، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة المعشوق لذلك انجذب إليه القلب بكليته ومالت إليه النفس كل الميل . فإن قيل : قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التى من جملتها : رقة الطبع ، وترويح النفس ، وخفتها ، وزوال ثقلها ، ورياضتها ، وحملها على مكارم الأخلاق ، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب ؟

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : إن ابنك قد عشق فلانة . فقال : الحمد لله الذى صيره إلى طبع الآدمى .

وقال بعضهم : العشق داء أفئدة الكرام .

وقال غيره : العشق لا يصلح إلا لدى مروءة وخليقة طاهرة ، أو لدى لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لدى أدب بارع وحس ناصع .

---

(١) احتقب الأوزار : حملها

وقال آخر : العشق يشجع جنان الجبان ، ويصفى ذهن الغبي ، ويسخى كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق ، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له .

وقال آخر : العشق يزيل الأثقال ، ويلطف الروح ، ويصفى كدر القلب ، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قال الشاعر :

سيهلك فى الدنيا شفيق عليكم ... إذا غاله من جانب الحب غائله

كريم يميت السر ، حتى كأنـــه ... إذا استفهموه عن حديثك جاهله

يود بأن يمسى سقيما لعلهـــــا ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

ويهتز للمعروف فى طلب العـــلا ... لتحمد يوما عند ليلى شمائـــله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق .

وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، إظهاره طبيعى ، وإضماره تكليفى .

وقال آخر : من لم يهيج نفسه بالصوت الشجى والوجه البهى فهو فاسد المزاج يحتاج إلى علاج ، وأنشدوا فى ذلك :

إذا أنت لم تعشق ولم تـــدر ما الهوى ... فمالك فى طيب الحيـــاة نصيب

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهــوى ... فأنت وعير فى الفـــلاة ســـواء

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهــوى ... فقم فاعتلف تبنًا ، فأنت حمار

وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة : عفُّوا تشرفوا ، واعشقوا تظرفوا .

وقيل لبعض العشاق : ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى ؟ فقال : كنت

أمتع طرفى بوجهه ، وأروح قلبي بذكره وحديثه ، وأستر منه مالا يحب كشفه . ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده ، ثم أنشد :

أخلو به ، فأعِفُّ عنه تكرما خوف الديانة ، لست من عشاقه
كالماء فى يد صائم يلتذّه ظمأ ، فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم : أرواح العشاق عطرة لطيفة ، وأبدانهم رقيقة خفيفة ، نزهتهم المؤانسة ، وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد فى العقول ، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا .

وقال آخر : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته ضرك ، وإن أكثرت منه قتلك ، وفى ذلك قيل :

خليلى ، إن الحب فيه لذاذة وفيه شقاء دائم وكروب
على ذاك ما عيش يطيب بغيره ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير فى الدنيا بغير صبابة ولا فى نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطى عن أبي غسان قال : مر أبو بكر الصديق رضى الله عنه بجارية وهى تقول :

وهويته من قبل قطع تمائمى متمايلا مثل القضيب الناعر

فسألها : أحرة أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة ، فقال : من هواك ؟ فتلكأت ، فأقسم عليها ، فقالت :

وأنا التى لعب الهوى بفؤادها قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب[١] فقال : هؤلاء فتن الرجال . وكم والله قد مات بهن كريم ، وعطب بهن سليم .

---

(١) تكررت هذه القصة ، ولا يعقل أن يدرك محمد بن القاسم أبا بكر الصديق ؟ فلا بد أن يكون أبو بكر آخر ؛ وتكون كلمة « الصديق » مقحمة لا أصل لها . والخرائطي ليس من يوثق بنقله .

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه تستعدى على رجل من الأنصار ، فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت ، كَلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه ، فما أنفكُّ أراعيه ، فقال عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك ، أو أعطيك ثمنها من مالى ، فقال : أُشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

ونحن لا ننكر فساد العشق الذى متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق ، وإنما الكلام فى العشق العفيف ، من الرجل الظريف ، الذى يأْبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام ، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام ، فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ، ولم ينكر عليه ، وعُدَّ ظالماً من لامه ، ومن شعره :

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ... ولامك أقوام ، ولومهم ظلم
فنَمَّ [١] عليك الكاشحون ، وقبلهم ... عليك الهوى قد نمَّ ، لو ينفع الكتم
فأصبحت كالهندى إذ مات حسرة ... على إثر هند ، أو كمن شفه[٢] سقم
تجنبت إتيان الحبيب تأثما ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها ، قد كنت تزعم أنه ... رشاد ، ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت جارية بارعة الجمال ، وكان معجبًا بها ، وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له ، فتأْبى ، ولم تزل الجارية فى نفس عمر ، فلما استُخْلف أمرت فاطمة بالجارية فأُصلحت ، وكانت مثلا فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت على عمر وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجبًا بجاريتى فلانة ، وسأَلتها فأَبيت

---

(٢) نم الحديث : أفشاه .   (٣) شفه : أي هزله حتى صار نحيلا .

عليك ، والآن فقد طابت نفسى لك بها ، فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه ، وقال : عجلى على بها ، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبًا ، وقال لها : ألقى ثيابك ، ففعلت ، ثم قال لها : على رِسْلك ، أخبرينى لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ؟ فقالت : أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فأخذنى وبعث بى إلى عبد الملك فوهبنى لفاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وهل ترك ولدًا ؟ قالت : نعم ، قال : فما حالهم ؟ قالت : سيئة ، فقال : شُدِّى عليك ثيابك واذهبى إلى مكانك ، ثم كتب إلى عامله على العراق : أن ابعث إلىَّ فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك ، فلم يرفع إليه شيئًا إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له : إياك وإياها ، فلعل أباك قد ألم بها ، فقال الغلام : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : لا حاجة لى بها ، قال : فابتعها منى ، قال : لست إذا ممن نهى النفس عن الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت : أين وَجْدُك بى يا أمير المؤمنين ؟ قال : على حاله ، ولقد زاد . ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات رحمه الله .

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهرى العالم المشهور فى فنون العلم : من الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والأدب ، وله قول فى الفقه ، وهو من أكابر العلماء ، وعشقه مشهور .

قال نِفْطويَه : دخلت عليه فى مرضه الذى مات فيه ، فقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثنى ما ترى ، فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما : النظر المباح ، والآخر : لذة المحظورة ، فأما النظر المباح فهو الذى أورثنى ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فيمنعنى منها ما حدثنى أبى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مُسهر عن أبى يحيى

العتّات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه « مَنْ عشِقَ وكتم وعفّ وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة »

ثم أنشد :

انظر إلى السحر يجرى فى لواحظه   وانظر إلى دَعَج فى طرفه الساجى [1]
وانظر إلى شعرات فوق عارضه   كأنهن نِمَالٌ دَبَّ فى عاج

ثم أنشد :

ما لهم أنكروا سوادًا بخديه   ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خده برد الشعر   فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له : نفيت القياس فى الفقه وأثبته فى الشعر ؟ فقال : غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه ، ثم مات من ليلته ، وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة

ومن كلامه فيه : « من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه ، وذلك أن أول روعات اليأس تأتى القلب وهو غير مستعد لها ، فأما الثانية فتأتى القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى » .

والتقى هو وأبو العباس بن سُريج فى مجلس أبى الحسن على بن عيسى الوزير، فتناظرا فى مسألة من الإيلاء ، فقال له بن سريج : أنت بأن تقول : من دامت لحظاته كثرت حسراته — أحذق منك بالكلام على الفقه ، فقال : لئن كان ذلك فإنى أقول :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى   وأمنع نفسى أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه   يصب على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفى عن مترجم خاطرى   فلولا اختلاسى وده لتكلما

(١) الدعج : سواد العينين مع سعتهما . وطرف ساج : أى ساكن .

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فلست أرى وُدًّا صحيحًا مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج : بم تفخر على ؟ ولو شئت لقلت :

ومطاعم كالشهـد فى نغماته قد بِتُّ أمنعه لذيذ سناته [١]

بصبابة وبحسنه وحديثه وأنزه اللحظات عن وجناته

حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته [٢]

فقال أبو بكر : يحفظ عليه الوزير ما أقربه حتى يقيم شاهدين على أنه ولى بخاتم ربه وبراءته ، فقال ابن سريج : يلزمنى فى هذا ما يلزمك فى قولك :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال محرما

فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتما لطفًا وظرفًا ، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب فى تاريخه ، وجاءته يومًا فتيا [٣] مضمونها :

يا ابن داود ، يا فقيه العراق أفتنا فى قواتلَ الأحداق

هل عليها بما أتت منْ جناح أم حلال لها دم العشاق ؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين فقال :

عندى جواب مسائل العشاق فاسمعه من قرِح الحشا [٤] مشتاق

لما سألت عن الهوى هيجتنى وأرقتَ دمعًا لم يكن بمراق

إن كان معشوقًا يعذب عاشقًا كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الأحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد صاحب كتاب الإنشاء . وقلت فى جواب البيتين على قافيتهما مجيبًا :

قل لمن جاء سائلا عن لحاظ هن يلعبن فى دم العشاق

---

(١) جمع سنة ، وهى النوم .

(٢) أى كما برأه الله ، أى خلقه ، يريد أنه لم يمس بسوء ، أو ببراءته .

(٣) بضم الفاء وسكون التاء .

(٤) قرح : بفتح القاف وكسر الراء ، أى جريح الحشا .

ما على السيف فى الورى من جناح   إن ثنى الحد عن دم مهـراق
وسيـوف اللحاظ أولى بأن تصفح عما جنت على العشـاق
إنما كل من قتلن شهيـد   ولهذا يفنى ضنىً وهـو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبى الخطاب بن أحمد الكلوذانى شيخ الحنابلة فى وقته رحمه الله :

قل للإمام أبى الخطاب مسألة   جاءت إليك وما خلق سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمـذ   لاحت لخاطره ذاتُ الجمال لها[1]

فأجاب تحت السؤال :

قل للأديب الذى وافى بمسألة   سرت فؤادى لما أن أصحتُ لها
إن التى فتنتـه عن عبادته   خريدة ذات حسن فانثنى ولها
إن تاب ثم قضى عنه عبادته   فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسى : حججت سنة ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا جالس بين القبر والمنبر إذ سمعت أنينًا ، فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

أشجاك نوح حمائم السِّدْر[2]   أهجن منـك بلابل الصدر
أم عزَّ نومك ذكر غانيـة   أهدت إليك وساوس الفكـر
يا ليلة طالت عـلى دَنِف[3]   يشكر السهاد وقـلة الصبر
أسلمت من تهوى لحر جوًى   متوقـد كتوقد الجمـر
فالبدر يشهـد أننى كلـف   مغرم بحب شبيهـة البـدر

(١) من اللهو : أى شغل عن الصلاة .
(٢) شجر النبق .
(٣) الدنف : هو الذى أضناه الهوى وأسقمه الغرام .

ما كنت أحسبنى أهيم بهـــا حتى بليت ، وكنت لا أدرى

ثم انقطع الصوت ، فلم أدر من أين جاء ، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين ، ثم أنشد :

أشجاك من ريا خيــال زائر والليل مسود الذوائب عاكر
واغتال مهجتك الهوى برسيسه واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظــلام كأنــه يمٌ تلاطم فيه مــوج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص فى الدجى رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
يا ليل ، طُلت على محب ماله إلا الصباح مساعد ومـــوازر
فأجابنى : مت حتف أنفك واعلمن أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده ، فرأيت شابًا مقتبلا شبابه قد خرق الدمع فى خده خرقين ، فسلمت عليه ، فقال : اجلس من أنت ؟ قلت : عبد الله بن معمر القيسى ، قال : ألك حاجة ؟ قلت : نعم ، كنت جالسًا فى الروضة فما راعنى إلا صوتك ، فبنفسى أفديك ، فما الذى تجد ؟ فقال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ، غدوت يومًا إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه . ثم اعتزلت غير بعيد ، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا ، وإذا فى وسطهن جارية بديعة الجمال ، كاملة الملاحة ، فوقفت علىّ فقالت : يا عتبة ، ما تقول فى وصل من تطلب وصلك ؟ ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها خبرًا ، ولا قفوت لها أثرًا ، وأنا حيران أنتقل من مكانى إلى آخر ، ثم صرخ وأكب مغشيا عليه ، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس [1] ثم أنشد :

---

(١) نبت أصفر يعرف الآن بالكركم ، أو هو الزعفران .

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة   فيا هل تروني بالفؤاد على بعدى
فؤادى وطرفى يأسفان عليكم   وعندكم روحى ، وذكركم عندى
ولست ألذ العيش حتى أراكم   ولو كنت فى الفردوس فى جنة الخلد

فقلت : يا ابن أخى تب إلى ربك واستغفره من ذنبك ، فبين يديك هول المطلع ، فقال : ما أنا بسالٍ حتى يؤوب القارظان ، ولم أزل معه إلى أن طلع الصبح ، فقلت : قم بنا إلى مسجد الأحزاب ، فلعل الله أن يكشف كربتك ، فقال : أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك ، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول :

يا للرجال ليوم الأربعاء ، أما   ينفك يحدث لى بعد النهى[1] طربا
ما إن يزال غزال منه يقتلنى   يأتى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخبر الناس أن الأجر همته   وما أتى طالباً للخير محتسبا
لو كان يبغى ثوابًا ما أتى صلفاً[2]   مضمخاً بفتيت المسك مختضبا

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر ، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن ، فوقفن عليه وقلن له : يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك ، وكاسفة بالك ، قال : وما بالها ، قلن : أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة[3] فسألتهن عن الجارية ، فقلن : هى ريا ابنة الغطريف السلمى ، فرفع عتبة رأسه إليهن وقال :

خليلى ، ريا قد أجدَّ بُكوها   وسارت إلى أرض السماوة عيرها
خليلى ، إنى قد عشيت[4] من البكى   فهل عند غيرى مقلة أستعيرها

فقلت له : إنى قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى ، فقم بنا إلى مسجد الأنصار ، فقمنا وسرنا حتى

---

(١) النهى : العقل .
(٢) الصلف : هو من يدعى اللطف والظرف فى تكبر .
(٣) بادية بين الكوفة والشام .
(٤) العشا : ضعف البصر .

أشرفنا على ملأٍ منهم ، فسلمت فأحسنوا الرد ، فقلت : أيها الملأُ ما تقولون فى عتبة وأبيه ، قالوا : من سادات العرب ، قلت : فإنه قد رُمى بداهية من الهوى ، وما أُريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة ، فقالوا : سمعًا وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم ، فأُعلم الغطريف بنا فخرج مبادرًا فاستقبلنا ، وقال : حييتم يا كرام ، فقلنا : وأنت فحياك الله ، إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم أكرم منزل ، ثم نادى : يا معشر العبيد أنزلوا القوم ، ففرشت الأنطاع والنمارق وذبحت الذبائح ، فقلنا : لسنا بذائقى طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة ابن الحباب بن المنذر ، فقال : إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها ، وأنا أدخل أخبرها ، ثم دخل مغضبًا على ابنته ، فقالت : يا أبت مالى أرى الغضب فى وجهك ، فقال : قد ورد الأنصار يخطبونك منى ، فقالت : سادات كرام ، استغفر لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فلمن الخطبة منهم ؟ فقال : لعتبة بن الحباب ، قالت : والله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفى بما وعد ، ويدرك إذا قصد ، فقال : أقسمت لا زوجتك به أبدا ، ولقد نمى إلىّ بعض حديثك معه ، فقالت : ما كان ذلك ، ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون ردًا قبيحًا ، حسن لهم الرد ، فقال : بأى شىء ؟ قالت : أغلظ لهم المهر ، فإنهم يرجعون ولا يجيبون ، فقال : ما أحسن ما قلت ، ثم خرج مبادرًا ، فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ، ولكنى أريد لها مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا ، فقل ما شئت ، فقال : ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد ، وخمسة أكرشة عنبر ، فقال عبد الله : لك ذلك كله ، فهل أجبت ؟ قال : أجل ، قال عبد الله : فأنفذت نفرًا من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع ما طلب ، ثم صنعت الوليمة ، وأقمنا على ذلك أيامًا ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ، ثم حملها فى هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف ، فودعناه وسرنا ، حتى إذا

بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم ، فحمل عليها عتبة بن الحباب ، فقتل منهم رجالا ، وجرح آخرين ، ثم رجع وبه طعنة تفور دمًا ، فسقط إلى الأرض ، وانثنى بخده ، فطردت عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه ، فقلنا : واعتبتاه فسمعتنا الجارية ، فألقت نفسها من البعير ، وجعلت تصيح بحرقة ، وأنشدت :

تصبَّرت لا أنى صبرت ، وإنمـــا أعلل نفسى أنها بك لاحقــــه
فلو أنصفت روحى لكانت إلى الردَى أمامك من دون البرية سابقــــه
فما أحد بعدى وبعـــدك منصف خليلا ، ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها ، فاحتفرنا لهما قبرًا واحدًا ودفناهما فيه ، ثم رجعت إلى المدينة فأقمت سبع سنين ، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة ، فقلت : والله لآتين قبر عتبة أزوره ، فأتيت القبر ، فإذا عليها شجرة عليها عصائب حمر وصفر ، فقلت لأرباب المنزل : ما يقال لهذه الشجرة ؟ قالوا : شجرة العروسين .

ولو لم يكن فى العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد[1] ، وهو حديث سويد بن سعيد عن على بن مُسهر عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه « من عشق وعف ، وكتم فمات ، فهو شهيد » ورواه سويد أيضًا عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا ، ورواه الخطيب عن الأزهرى عن المعافى بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه ، ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز ابن أبى حازم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس .

وهذا سيد الأولين والاخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر إلى

---

(١) كتب ابن القيم .

زينب بنت جحش رضى الله عنها فقال « سبحان مقلب القلوب » وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه ، فلما همَّ بطلاقها قال له « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فلما طلقها زوَّجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات . فكان هو وليها وولى تزويجها من رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعُقِد عقْد نكاحها من فوق عرشه ، وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أَمسِك عليك زوجك واتق الله ، وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه . وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ﴾، [الأحزاب : ٣٧] (١)

وهذا داود نبى الله عليه السلام لما كان تحته تسع وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمل بها المائة .

وقال الزهرى : أول حب كان فى الإسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها ، وكان مسروق يسميها : حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو « أرسلنى عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها . أكان النبى صلى الله عليه وسلم يقبِّل أهله وهو صائم ؟ فقالت ، لا . فقال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ، فقالت أم سلمة رضى الله عنها إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها » .

وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه ، قال : كان إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم يزور هاجر فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها ، وقلة صبره عنها .

وذكر الخرائطى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما اشترى جارية رومية ، فكان يحبها حبًا شديدًا ، فوقعت ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها ، وكانت تكثر من أن يقول له : يا بطرون أنت قالون ، تعنى

(١) فى هذا الكلام دخل ، ولا نقره على ما هو عليه .

يا مولاى أنت جيد ، ثم إنها هربت منه ، فوجد عليها وجدًا شديدًا ، وقال :

قد كنت أحسبنى قالون فانصرفت فاليوم أعلم أنى غير قالـــون

قال أبو محمد بن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها ، فقال : ذلك ما لا تملك .

فالجواب ، وبالله التوفيق : أن الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز ، والنافع والضار ، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة ، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه ، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ، ونحن نذكر النافع من الحب والضار ، والجائز والحرام .

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، وبها قامت الأرض والسموات ، وعليها فطرت المخلوقات وهى سر شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله ، والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يحب تبعًا لمحبته .

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله ، وفطرته التى فطر عباده عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم ، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كل الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه

تجأرون ﴾ ، [النحل : ٥٣] وما تعرّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

والمحبة لها داعيان : الجمال والإجلال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والإجلال كله منه : فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ، [آل عمران : ٣١] وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ، [المائدة : ٥٤ - ٥٦]

فالولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب ، كما أن العداوة أصلها البغض ، والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له ، وهو مواليهم بمحبته لهم ، فالله يوالى عبده بحسب محبته له .

ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه ، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه . بل موالاته لهم من تمام موالاته .

وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة ، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحب الله ، قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ ، [البقرة : ١٦٥] وأخبر عمّن سوّى بينه وبين الأنداد فى الحب أنهم يقولون فى النار لمعبوديهم ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ، [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨]

وبهذا التوحيد فى الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار ، فجعل الجنة لأهله والنار للمشركين به فيه .

وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه « لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » فكيف بمحبة الرب جل جلاله ؟ وقال لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه « لا ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » أى لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا فى المحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم ؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره ، فعطاؤه ومنعه ، ومعافاته وابتلاؤه ، وقبضه وبسطه ، وعدله وفضله ، وإماتته وإحياؤه ، وبره ، ورحمته وإحسانه ، وستره وعفوه ، وحلمه وصبره على عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربه ، وإغاثة لهفته ، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذلك داع للقلوب إلى تألّيهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له ، وهو يقضى وطره من معصيته ، يعينه ويستعين عليها بنعمه — من أقوى الدواعى إلى محبته ، فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شىء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته ؟ فخيره إليه نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحبب إليه بنعمه ، وهو غنى عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصى وهو فقير إليه ، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

فَأَلأَمُ اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هٰذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه .

وأيضًا ، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ، والله سبحانه يريدك لك ، كما فى الأثر الإلٰهى « عبدى كلٌّ يريدك لنفسه ، وأنا أريدك لك » فكيف لا يستحيي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره ، قد استغرق قلبه بمحبة سواه ؟

وأيضًا فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولابد له من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهى أسرع شىء محوًا .

وأيضًا فهو سبحانه خلقك لنفسه ، وخلق كل شىء لك فى الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته ؟

وأيضًا فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعًا - لديه ، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل وينميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من فى السمٰوات والأرض كل يوم هو فى شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين فى الدعاء ، ويحب أن يُسأل ، ويغضب إذا لم يُسأل ، يستحى من عبده حيث لا يستحى العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله فى طلبه ، وبعث إليه معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال « من يسألنى فأُعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » كما قيل : أدعوك وللوصل تأبى ، أبعث رسولى فى الطلب ، أنزل إليك بنفسى ، ألقاك فى النوم .

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، ولا يجيب الدعوات ، ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ، ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات ، وينيل الطلبات سواه ؟ فهو أحق من ذُكر ، وأحق من شكر وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأنصر من ابتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قصد ، وأعز من التُجئ إليه ، وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها ، وهو الملك لا شريك له ، والفرد فلا ندَّ له ، كل شيء هالك إلا وجهه لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يعصى إلا بعلمه ، يطاع فيشكر ، وبتوفيقه ونعمته أطيع ، ويعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصى ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه [1] لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه ، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه [2] ما انتهى إليه بصره من خلقه .

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ، ولو ملك الوجود بأسره

---

(١) عنت : أى خضعت وذلت .

(٢) سبحات – بفتح السين وضم الباء – والمعنى لو انكشف شيء من أنوار الله التى تحجب العباد عنه لهلك كل ما وقع عليه ذلك النور كما خر موسى صعقا .

فصل

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به ، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين :

أحدهما : كمال المحبوب فى نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه .

والأمر الثانى : كمال محبته ، واستفراغ الوسع فى حبه ، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شىء .

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل ، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال ، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته .

وإذا عرف هذا ، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه ، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها . أو منعت لذة خيراً منها وأجل ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفوتت أعظم اللذات المسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، كما قال تعالى﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى﴾ ، [الأعلى : ١٦ ، ١٧] وقال السحرة لفرعون لما آمنوا ﴿ فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى﴾ ، [طه : ٧٢ ، ٧٣] .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد . وأما الدنيا فمنقطعة . ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم . بخلاف الآخرة . فإن

لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مع الخلود أبدًا ، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهٰذا المعنى الذى قصده الناصح لقومه بقوله ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هٰذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ ، [غافر : ٣٨ ، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها ، وأن الآخرة هى المستقر .

وإذ ا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الاخرة ، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها ، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يذم تناولها ، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة .

إذا عرف هٰذا ، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها : هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله . وسماع كلامه منه ، والقرب منه ، كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية « فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه » وفى حديث آخر « إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم » .

وفى النسائى ومسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه « وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك »

وفى كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد مرفوعًا « كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن ، إذا سمعوه من الرحمٰن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذٰلك » .

وإذا عرف هٰذا ، فأعظم الأسباب التى تحصل هٰذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق ، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته ، فإن ذٰلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالى ، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة فى بحر ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك ، فأطيب ما فى الدنيا معرفته ومحبته ، وألذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرة العيون ، ولذة الأرواح ، وبهجة القلوب ،

ونعيم الدنيا وسرورها ، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا ، ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك ، فليست الحياة الطيبة إلا بالله ، وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ، وقد تقدم ذلك ، وكان غيره يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب يقول فى حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول غيره :

أف للدنيا إذا ما لم يكن ... صاحب الدنيا محبا أو حبيبا

ويقول الآخر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها ... وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر :

اسكن إلى سكن تلذ بحبه ... ذهب [1] الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر :

تشكى المحبون الصحابة ، ليتنى ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدى

فكانت لقلبى لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

فكيف بالمحبة التى هى حياة القلوب وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذة ، ولا نعيم ، ولا فلاح ، ولا حياة إلا بها ؟ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمه ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه

---

(١) فى نسخة « وصب الزمان » والوصب : الهم والتعب .

الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلام .

والمقصود : أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة فى الآخرة ، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع :

فأعظمها وأكملها : ما أوصل إلى لذة الآخرة ، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب ، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه ، فكيف بلذة إيمانه ، ومعرفته بالله ، ومحبته له ، وشوقه إلى لقائه ، وطمعه فى رؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم ؟

النوع الثانى : لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها ، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودة بينهم فى الحياة الدنيا ، يحبونهم كحب الله ، ويستمتعون بعضهم ببعض كما يقولون فى الآخرة إذا لقوا ربهم ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ ، [الأنعام : ١٢٨ ، ١٢٩] ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى فى الأرض والعلو بغير الحق ، وهذه اللذات فى الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات ، بمنزلة من قدم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلى هلاكه ، قال تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ، [الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣] .

قال بعض السلف فى تفسيرها : كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥]

وقال تعالى فى أصحاب هٰذه اللذة ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ، [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦]

وقال فى حقهم ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ، [التوبة : ٥٥]

وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام كما قيل :

مآرب كانت فى الحيـاة لأهلها عِذابًا ، فصارت فى المعاد عَذابا

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا ألماً ، ولا تمنع أصل لذة دار القرار ، وإن منعت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها على لذة الآخرة ، فهذه زمانها يسير ، ليس لتمتع النفس بها قدر ، ولابد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها .

وهذا القسم هو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق » فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ، ومالم يعن عليها فهو باطل .

فصل

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم ، بل هو أحمد أنواع الحب ، وكذلك حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما نعنى المحبة الخاصة ، والتى تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه ، وإلا فكل مسلم فى قلبه محبة لله ورسوله لا يدخل فى الإسلام إلا بها ، والناس متفاوتون فى درجات هٰذه المحبة تفاوتًا لا يحصيه إلا الله ، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما ، فهٰذه المحبة هى التى تلطف وتخفف أثقال التكاليف ، وتسخى البخيل ، وتشجع الجبان ، وتصفى الذهن ، وتروض النفس ، وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المحرمة ، وإذا

بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد ، كما قيل :

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر [1]

وهٰذه المحبة هى التى تنور الوجه ، وتشرح الصدر ، وتحيي القلب ، وكذٰلك محبة كلام الله ، فإنه من علامة محبة الله ، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله ، فانظر محبة القرآن من قلبك ، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم ، فإن من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحب شىء إليه ، كما قيل :

إن كنت تزعم حبى فلمَ هجرت كتابى ؟
أما تأملتَ ما فيه من لذيذ خطابى

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه « لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله » وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه ؟ وقال النبى صلى الله عليه وسلم يومًا لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه « اقرأ علىَّ ، فقال : أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ فقال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فاستفتح فقرأ سورة النساء ، حتى إذا بلغ قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هٰؤلاء شهيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قال : حسبك ، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان من البكاء » وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ ، وهم يستمعون ، فلمحبي القرآن – من الوجد ، والذوق ، واللذة ، والحلاوة ، والسرور – أضعاف ما لمحبي السماع الشيطانى ، فإذا رأيت الرجل ، ذوقه ، ووجده ، وطربه ، وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات ، وسماع الألحان دون سماع القرآن ، كما قيل :

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر وبيت من الشعر ينشد تميل كالسكران

---

(١) تبلى السرائر : بالبناء للمفعول ، أى تختبر ويظهر الله ويكشف ما كانت تخفيه .

فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان ، والمغرور يعتقد أنه على شيء .

ففي محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف أضعاف ما أورد السائل من فوائد العشق ومنافعه ، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه . وكل حب سوى ذلك باطل ، إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه .

فصل

وأما محبة الزوجات : فلا لوم على المحب فيها . بل هي من كماله ، وقد امتن الله سبحانه بها على عباده فقال ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ، [الروم : ٢١] فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن قلبه إليها ، وجعل بينهما خالص الحب ، وهو المودة المقترنة بالرحمة ، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ، [النساء ٢٦ — ٢٨] .

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه : كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر .

وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها ، وقال : إن المرأة تقبل في صورة شيطان ، وتدبر في صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه » ففي هذا الحديث عدة فوائد .

منها : الإرشاد إلى التسلى عن المطلوب بجنسه ، كما يقوم الطعام مقام الطعام ، والثوب مقام الثوب .

ومنها : الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية ، وهو قضاء وطره من أهله ، وذلك ينقض شهوته لها ، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح ، كما فى سنن ابن ماجة مرفوعا « لم ير للمتحابين مثل النكاح » فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذى جعله الله دواء شرعا ، وقد تداوى به داود صلى الله عليه وسلم ، ولم يرتكب نبى الله محرمًا ، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها ، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ، ولا يليق بنا المزيد على هذا .

وأما قصة زينب بنت جحش : فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان يستشير النبى صلى الله عليه وسلم فى فراقها ، وهو يأمره بإمساكها ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مفارقها ولابد . فأخفى فى نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه ، فإنه كان قد تبنى زيدًا قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعًا عامًا فيه مصالح عباده ، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه ، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره ، وعظمت فى صدره لما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداها من وراء الباب « يا زينب إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ، فقالت ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربى ، وقامت إلى محرابها فصلت ، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وعقد النكاح له فوق عرشه ، وجاء الوحى بذلك ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عليها ، فكانت تفخر على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بذلك وتقول : « أنتن زوجكن

أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب .

ولا ريب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حبب إليه النساء ، كما فى الصحيح عن أنس عنه صلى الله عليه وسلم « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » هذا لفظ الحديث ، لا ما يرويه بعضهم « حبب إلى من دنياكم ثلاث » زاد الإمام أحمد فى كتاب الزهد فى هذا الحديث « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا : ما همه إلا النكاح ، فرد الله سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونافح عنه فقال ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ [1] ، [النساء : ٥٤]

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها .

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة ، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف فى الليلة على تسعين امرأة ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فقال « عائشة رضى الله عنها » وقال عن خديجة « إنى رزقت حبها » .

فمحبة النساء من كمال الإنسان ، قال ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » وذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم جَلولاء [1] جارية كأن عنقها إبريق فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

---

(١) جلولاء : بلدة فى طريق خراسان من سواد العراق ، كانت بها وقعة مشهورة على الفرس للمسلمين فى سنة ١٦ هـ . فاستباحهم المسلمون .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم فى المسبية ، بخلاف المشتراة ، فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعًا بأمة غيره .

وقد شفع النبى صلى الله عليه وسلم لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت ، وذلك فى قصة مغيث وبريرة لما رآه النبى صلى الله عليه وسلم يمشى خلفها ودموعه تجرى على خديه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو راجعته ؟ فقالت : أتأمرنى يا رسول الله ؟ فقال : لا ، إنما أشفع ، فقالت : لا حاجة لى به ، فقال لعمه : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغضها له ؟ » ولم ينكر عليه حبها ، وإن كانت قد بانت منه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يسوى بين نسائه فى القسم ، ويقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك » يعنى فى الحب . وقد قال تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ ، [النساء : ١٢٩] يعنى فى الحب والجماع .

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن كما تقدم من فعل أبى بكر وعثمان ، وكذلك على رضى الله عنه أتى بغلام من العرب وجد فى دار قوم بالليل ، فقال له : ما قصتك ؟ قال : لست بسارق ولكنى أصدقك :

تعلقت فى دار الرياحى خودة ... يذل لها من حسن منظرها البدر
لها فى بنات الروم حسن ومنصب ... إذا افتخرت بالحسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتى ... أبيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بى ثم صيحوا ... هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه شعره رق له ، وقال للمهلب ابن رباح : اسمح له بها ، فقال : يا أمير أمير المؤمنين ، سله من هو ؟ فقال : النهاس بن عيينة ، فقال : خذها فهى لك .

واشترى معاوية جارية ، فأُعجب بها إعجابًا شديدًا ، فسمعها يومًا تنشد أبياتًا منها :

وفارقته كالغصن يهتز فى الثرى　　طريراً وسيماً بعدما طرَّ شاربه

فسألها ، فأخبرته أنها تحب سيدها ، فردها إليه ، وفى قلبه منها .

وذكر الزمخشري فى ربيعة أن زبيدة قرأت فى طريق مكة على حائط :

أما فى عباد الله أو فى إمائه　　كريم يجلى الهم عن ذاهب العقل

له مقلة أما الأماق قريحة　　وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه ، فبينا هى بالمزدلفة إذ سمعت من ينشدهما ، فطلبته ، فزعم أنه قالهما فى ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه ، فوجهت إلى الحى ، ومازالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه ، وإذا المرأة أعشق له منه لها ، فكانت تعده من أعظم حسناتها وتقول . ما أنا بشىء أسر منى من جمعى بين ذلك الفتى والفتاة .

قال الخرائطى : وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان ، فكتب الغلام إليها يومًا :

ولقد رأيتك فى المنام كأنما　　عاطيتنى من ريق فيك البارد

وكأن كفك فى يدى ، وكأننا　　بتنا جميعًا فى فراش واحد

فطفقت يومى كله متراقدًا　　لأراك فى نومى ، ولست براقد

فأجابته الجارية :

خيرًا رأيت ، وكل ما أبصرته　　ستناله منى برغم الحاسد

إنى لأرجو أن تكون معانقى　　فتبيت منى فوق ثدى ناهد

وأراك بين خلاخلى ودمالجى　　وأراك فوق ترائبى ومجاسدى

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام ، وأحسن حالهما على فرط غيرته .

وقال جامع بن برخية : سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة : هل فى حب

دهمنا من وزر ؟ فقال سعيد : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر ، فقال سعيد : والله ما سألنى أحد عن هٰذا ، ولو سألتنى ما كنت أجيب إلا به .

فعشق النساء ثلاثة أقسام : قسم هو قربة وطاعة ، وهو عشق امرأته وجاريته ، وهٰذا العشق عشق نافع ، فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح : وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، ولهٰذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس .

وعشق هو مقت من الله وبُعد من رحمته ، وهو أضر شيء على العبد فى دينه ودنياه ، وهو عشق المردان ، فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله ، وطرد عن بابه ، وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله ، كما قال بعض السلف : إذا سقط العبد من عين الله ، ابتلاه بمحبة المردان ، وهٰذه المحبة هى التى جلبت على قوم لوط ما جلبت ، فما أتوا إلا من هٰذا العشق ، قال الله تعالى ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ ، [الحجْر : ٧٢] .

ودواء هٰذا الداء : الاستغاثة بمقلب القلوب ، وصدق اللجإ إليه ، والاشتغال بذكره ، والتعوض بحبه وقربه ، والتفكر فى الألم الذى يعقبه هٰذا العشق ، واللذة التى تفوته به ، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب ، وحصول أعظم مكروه ، فإذا أقدمت نفسه على هٰذا وآثرته فليكبِّر على نفسه تكبير الجنازة ، وليعلم أن البلاء قد أحاط به .

والقسم الثالث : العشق المباح وهو الواقع من غير قصد ، كعشق من وصفت له امرأة جميلة ، أو رآها فجأة من غير قصد ، فتعلق قلبه بها ، ولم يحدث له ذٰلك العشق معصية . فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه ، والأنفع له مدافعته والاشتغال عنه بما هو أنفع له منه ، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى ، فيثيبه الله على ذٰلك ، ويعوضه على صبره لله وعفته ، وتركه طاعة هواه ، وإيثار مرضاة الله وما عنده .

والناس فى العشق ثلاثة أقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق ، وقلبه يهيم فى كل واد ، له فى كل صورة جميلة مراد ، ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع فى وصاله أو لا ، ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع فى وصاله . وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه فى كل واد ، وله فى كل صورة جميلة مراد

فيوما بحزورى ويومًا بالعقيق وبالعذيب يومًا ويوما بالخليصاء .

وتارة ينتحى نجـــداً وآونة   شعب العقيق وطورًا قصر تيماء

فهٰذا عشقه أوسع ، ولٰكنه غير ثابت كثير التنقل .

يهيم بهذا ثم يعشـــــق غيره   ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما فى واحد ، ولٰكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال ، وعاشق الجمال الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق وأعرفهم ، وحبه أقوى ، لأن الطمع يمده ويقويه .

وأما حديث « من عشق فعف » فهٰذا يرويه سويد بن سعيد ، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه .

قال ابن عدى فى كامله : هٰذا الحديث أحد ما أنكر على سويد . وكذا ذكر البيهقى وابن طاهر فى الذخيرة والتذكرة ، وأبو الفرج ابن الجوزى وعده فى الموضوعات ، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله ، وقال : أنا أتعجب منه .

قلت : والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفًا عليه ، فغلط سويد فى رفعه .

قال محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا أبو بكر الأزرق عن سويد به ، فعاتبه على ذٰلك ، فأسقط ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان بعد ذٰلك يسأل عنه فلا يرفعه ، ولا يشبه هٰذا كلام النبوة .

وأما رواية الخطيب له عن الزهري : حدثنا المعافى بن زكريا ، حدثنا قطبة ابن الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا فمن أبين الخطإ ، ولا يحمل هشام عن أبيه عن عائشة مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث ، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولا حدثت به عروة عنها ، ولا حدث به هشام قط .

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا ، فكذب على ابن الماجشون ، فإنه لم يحدث بهذا ، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار ، وإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين ويا سبحان الله ! كيف يحتمل هذا الإسناد مثل هذا المتن ؟ فقبح الله الوضاعين .

وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل : حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعًا ، وهذا غلط قبيح ، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي ، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح ، لا سيما وقد رواه في كتاب الاعتدال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح ، والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية ، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان ، وإليهم يرجع في هذا الشأن ، ولا صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ، ويرجع في التصحيح إليه ، ولا من عادته التسامح والتساهل ، فإنه لم يصف نفسه له ، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين قد أنكره وشهد ببطلانه .

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه .

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه : أنه سئل عن الميت عشقًا ، فقال « قتيل الهوى لا عقل له ولا قَوَد » ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ ، فقال : ما شأنه ؟ قالوا : العشق ، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق ؛ وقد تقدم ذلك .

فهذا نفس ما روى عنه ذلك .

ومما يوضح ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم عدَّ الشهداء فى الصحيح ، فذكر المقتول فى الجهاد ، والمبطون ، والحرق ، والنفساء يقتلها ولدها ، والغرق ، وصاحب ذات الجنب ، ولم يذكر منهم من يقتله العشق .

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضى الله عنهما ، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ، ويعف لله ، ويكتم لله ، لكن العاشق إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على معشوقه ، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه ، هذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى ﴿ وأما من خاف مقامَ ربِّه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى ﴾ ، [النازعات : ٤٠ ، ٤١] وتحت قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ ، [الرحمن : ٤٦] .

فنسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه ، وابتغى بذلك قربه ورضاه .

تم بحمد الله ومنِّه طبع هذا الكتاب النفيس

فهـــرس

كتاب «الجواب الكافى لمن يسأل عن الدواء الشافى»

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



رقم الإيداع بدار الكتب
٨٧/٣٥٢٥



